

ابو حَمْن عَلَى حَسْنِ النَّدْوِي

موقف العَالم الْإِسْلَامِي  
تجاه  
اِحْضَارَة لِغَرْبِيَّة

ملتزم الطبع و النشر  
المجمع الْإِسْلَامِيُّ الْعَلَمِيُّ ، ندوة العلماه  
لکشتو ( الهند )

ابوحسن على حسني الندوى

موقف العَالم الْإِسْلَامِي  
تجاه  
الحضارة الغَرْبِيَّة

ملازم الطبع و النشر  
المجمع الإسلامي العلمي ، ندوة العلماء  
لسكھنؤ ( الهند )

الش

رویستان

# مطبعة ندوة العلماء لكتابات الهند

موقف العَلم الْإِسْلَامِي  
تجاه  
الْحُضَارة الْغَربِيَّة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## كلمة المؤلف

و بعد فهذه رسالة قد بحثت فيها عن موقف العالم الإسلامي تجاه الحضارة الغربية ، و هو موضوع على عملي حاسم لا يحتمل أدنى تأجيل ، و من أهم القضايا التي يواجهها العالم الإسلامي والأقطار التي نالت حريتها و استقلالها ، و تستطيع أن تقرر مصيرها . و تحدد اتجاهها و موقفها من الحضارة الغربية ، في حرية و انطلاق ، و على الموقف الذي تختاره هذه الأقطار و المجتمعات الإسلامية تجاه هذه الحضارة يتوقف موقفها من المنهج الإسلامي في الحياة و الاجتماع و الأخلاق ، و مدى ارتباطها بالدين — بمعنى الكلمة الواسع — و خضوعها للروح الدينية و الفكرة الإسلامية و قائمها لرسالتها و مركزها ، و بالاختصار اتصافها بالأمة الوسط التي أخرجت للناس .

و قد كثُر في هذا الموضوع الإفراط و التفريط ، و الإغراق في التفاؤل و التساؤم ، و طغت النزعات و الميول ،

و تأثير التربية و الثقافة و البيئات ، غير مؤسس على البحث العلمي المجرد ، والنظرة الاسلامية الخالصة ، و روح الكتاب و السنة و نصوصها ، و سيرة السلف الصالح ، فأحدث ذلك صراعا فكرييا هائلا في العالم الاسلامي ، كانت عاقبته وخيمة للجيل الجديد ، وكان العالم الاسلامي في غنى عنده ، لو حكم الدين و تحرر من السيطرة الفكرية و الثقافية الاجنبية ، و التقليد الاعمى ، و من رجعيية التقديرين ، و حاولت جهدي أن أكون واقعيا أكثر من أن أكون علميا ، استرسلي في الخيال و المعانى الشعرية ، و أن يقسم هذا البحث بالازان و الاقتصاد و السداد ، و حب الواقع و إن لم يرض كثيرا من العاطفيين و المتطرفين .

و قد استعرضت في هذا البحث حركات التجديد و التطوير في العالم الاسلامي في هذا القرن ، و حركات الدعوة إلى تقليد الحضارة الغربية ، و حركات الانتقاد و الثورة عليها ، و ذكرت ماهما و ما عليها . من غير تحيز إلى قة أو تقدس لفكرة ، و ترجمت لزعمائها و قادتها ، و قد ثارت حول كثير منهم شائعات و مبالغات ، و اجتهدت أن أبرزهم في ملامحهم التاريخية الصحيحة و أصورهم تصویرا لا مثلا فيه و لا تجميل ، حتى يستطيع القارئ الكريم أن يحكم عليهم في ضوء التاريخ ، و يكون رأيه عنهم ، معتمدا في ذلك على كتاباتهم ، و مرآة أفكارهم ، و سجل و قائمتهم و الوثائق التاريخية .

وقد بدأت بهذه الموضع كمقال أكتبه لمجلة «البعث الإسلامي»،  
ول لكنه توسع و انشعب الحديث حتى تكون كتاب صغير أعتقد  
أنه يجحب في أوانه ، ويصل عوزاً في مكتبة الإسلامية الفكرية  
المعاصرة و يعين على التفكير و التخطيط في المعركة الفكرية  
الخامية ، التي يخوض فيها العالم الإسلامي اليوم ، و على الله قصد  
السبيل و منها حائز

المجمع الاسلامي العلمي  
ندوة العلماء لكتبهنؤ (المهد)  
أبو الحسن علي الحسني الندوى  
٢١ شعبان ١٣٨٢ هـ



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

العالم الاسلامى امام مشكلة الحضارة الغربية : واجه العالم الاسلامى في منتصف القرن التاسع عشر المسيحي مشكلة في غاية الدقة و التعقد و الخطورة ، و على الموقف الذى يتخذه تجاه هذه المشكلة الحاسمة يتوقف مستقبله كعالم له شخصيته و كيانه .

هى مشكلة الحضارة الغربية الفتية ، الدافعة بالحياة و النشاط و الطموح و فوة الانتشار و الاستيلاء ، و هي من أقوى الحضارات البشرية التي عرفها التاريخ ، و التي لم تكن إلا ظهراً من مظاهر الواقع الذى تكونت و اختمرت قدماً ، و ظهرت في أوانها .

واجه العالم الاسلامى هذه المشكلة و جها لوجه ، لأنه هو زعيم الرسالة الدينية و الخلقية ، و صاحب الوصاية على المجتمع البشري ، بعد ما انسحبت الديانات القديمة من معرك الحياة ، و صاحب القوة الكبرى التي يحسب لها الحساب ، و صاحب الدول

الواسعة في هذا القرن ، فكان تحدي هذه الحضارة المادية الآلية للعالم الإسلامي أعظم من تحديها لأى أمة ، ولأى حضارة ، ولأى مجتمع بطبيعة الحال .

المزيج الغريب : و كانت هذه الحضارة – بمعناها الواسع – مجموع عقائد و مناهج فكرية ، و فاسفات و نظم سياسية و اقتصادية ، و علوم طبيعية و عمرانية ، و اجتماعية ، و تجارب خاصة مرت بها الشعوب الأوربية التي تزعمت هذه الحضارة في رحلتها الطويلة ، و كانت مظاهر تقدم العلم البشري و علوم الطبيعة ، و علم الآلات و العلوم الرياضية ، و مجموع نتائج جهود علماء و باحثين عبر القرون .

فكانت مزيجاً غريباً من أجزاء لا يكون الحكم عليها واحداً متشابهاً ، كانت مزيجاً من السليم و السقيم ، و من الصواب و الخطأ في النتائج و الأحكام .

و من البديهيات في العلم التي لا تقبل الجدال و الشك ، و من التخمينات و التحكمات في الآراء و الدعوى التي تقبل المناقشة الطويلة و الجدال الكثير ، و ما هو خبرة من الاختبارات و البحوث الطويلة و ما هو فج لا يزال في دور التجربة و الاختبار ، و النشوء و الارتفاع ، و ما لا يختص باقليم أو عنصر من علوم تطبيقية ، و بالعكس مما تجللت فيه الطبيعة الأوربية ، و أثرت فيه البيئة الغربية ، و ولدته حوادث تاريخية خاصة اكتوت بنارها هذه الأمم . و

ما له صلة قوية عميقه بالدين و العقائد ، و ما لا صلة له بالدين مطلقاً ، و ذلك الذى زاد في تعقد هذه المشكلة و خطورتها ، و أخرج مركز العالم الاسلامى ، و كان فيه بلاه و مخنث لذكاء قادته و زعمائه ، و أصحاب التوجيه فيه .

الموقف الأول السلبي : و كانت هالك ثلاثة موافق يستطيع العالم الاسلامى أن يقفها أمام هذه المشكلة الطريفة ، لا أرى لهذه الثلاثة رابعاً .

كان الموقف الأول موقف السلب ، و هو أن يرفض العالم الاسلامى هذه الحضارة و ماجاءت به بتاتاً ، و يقف منها موقف المعارض الشائر ، أو موقف المعتزل الحائد ، لا يقتبس منها شيئاً و لا يسمح بدخول علم من العلوم التي كان للأوربيين فيها التفوق و الاختصاص ، و لا يتتفع بتجارب الغرب في مجالات الطبيعة و الكيمياء و الرياضة و علم ميكانيكا ، و لا يستورد شيئاً من الآلات ، و الصنائع و الأجهزة ، و أدوات الحرب والبضائع و مرافق الحياة .

حكم هذا الموقف طبيعياً و شرعياً و تأثيره : و هذا لابد ينتج التخلف الشديد عن ركب الحياة ، و يقطع صلة هذا الجزء عن باقى العالم ، و يكون جزيرة منقطعة لا مناعة لها و لا قيمة ، و البر لا مكان فيه للجزر المنقطعة الصغيرة ، و لا حرب مع الطبيعة البشرية ، و منطق

الحوادث و الحفائق ، و هو — بصرف النظر عن كل هذا — ضيق في العقل ، و تعطيل للهوى الفطرية ، و جنائية على الاسلام ، و سو . تفسير للدين الذي يبحث على استعمال العقل و التفكير في الكون (١) و اقتباس الصالح النافع أينما كان مصدره (٢) . و يأمر باعداد القوة الممكنة للدفاع عن الدين و إرهاب العدو (٣) و ينظر إلى الانسان ك الخليفة الله في هذه الأرض (٤) سخر له البحار و الأنهار ، و سخر له الشمس و القمر و سخر له الليل و النهار ، و آتاه من كل ما سأله بلسان المقال أو بلسان الحال (٥) و امتن على عباده بإنزال الحديد الذي فيه بأس شديد و منافع للناس (٦) و ضرب رسوله المثل لأمته باقتباس بعض أساليب الحرب

- ١ - إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار الآيات لأولى الآيات ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم وينفكون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا إاطلا سبحانك فهذا عذاب النار ، رآل عمران ) ١٩٠ - ١٩١ .

٢ - **المحكمة** صالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق بها

٣ - و أهدوا لهم ما استطعتم من قوة و من رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله عدوكم الآية ( الانفال ) ٦٠

٤ - إني جاعل في الأرض خليفة ( البقرة ٢٠ )

٥ - الله الذي خاق السموات والأرض ، و أنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم و سخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره و سخر لكم الانهار و سخر لكم الشمس و القمر دائرين و سخر لكم الليل و النهار ، و آتاكم من كل ما سألكم و إن تعدوا نعمة الله لا تتحصوها إن الإنسان لفؤوم كفار ( ابراهيم ٣٣ - ٣٤ )

٦ - و أرزانا الحديد فيه بأس شديد و منافع للناس ( الحديدة ٢٥ )

و الدفاع من غير المسلمين و غير العرب ، خفر الخندق في الأحزاب كما كان يحفره الفرس ، و على هذه السيرة سار أصحابه و فقهاء أمتهم من بعده ، فكانوا يسأرونـ الزمن و يجـارونـ الأمم في الأساليب الحرية و اتخاذ آلات الحرب و وسائل القوة ، و تعلم العلوم النافعة ، و يسبـونـها أحيانا .

ولو حاول قطر من الأقطار أن يطبق عينه و سمعه عنـ تحدي هذه الحضارة الصارخ أو أن يرفضـها رفضـاً باتـا ، و صـممـ علىـ أنـ يـيشـ فيـ عـزلـةـ عنـ العـالـمـ المـعاـصـرـ .ـ منـطـويـاـ عـلـىـ نـفـسـهـ لـماـ استـطـاعـ ذـالـكـ ،ـ وـ لـوـ اـجـهـ ثـورـاتـ لـآـخـرـ هـاـ ،ـ وـ عـصـيـاـنـاـ وـ تـمـرـدـاـ فـيـ الدـاخـلـ ،ـ لـأـنـهـ يـعـارـضـ الـفـطـرـةـ الـإـنـسـانـيـةـ الـوـثـابـةـ الـطـمـوـحـ ،ـ الـلـوـعـ بـالـجـدـيدـ الـطـالـبـةـ لـلـزـيـدـ ،ـ الـطـامـحةـ دـائـماـ إـلـىـ الـمـجـدـ وـ الـقـوـةـ وـ التـجـدـيدـ ،ـ وـ يـعـارـضـ كـذـالـكـ السـنـنـ الـڪـوـنـيـةـ وـ طـبـائـعـ الـأـشـيـاءـ ،ـ وـ لـوـ فـعـلـ ذـلـكـ قـطـرـ مـنـ الأـقـطـارـ لـتـسـرـبـ هـذـهـ الـحـضـارـةـ إـلـىـ أـسـرـ هـذـاـ القـطـرـ وـ بـيـوـتـهـ ،ـ كـاـ يـتـسـرـبـ الـمـاءـ فـيـ الـقـرـيـةـ أـوـ الـمـدـيـنـةـ إـذـاـ أـحـاطـ بـهـاـ السـيـلـ مـنـ كـلـ جـانـبـ ،ـ وـ طـغـيـ عـلـيـهـاـ الـفـيـضـانـ .ـ

مـصـيرـ الـأـقـطـارـ الـتـيـ تـعـيـشـ

فـيـ عـزلـةـ عـنـ الـعـالـمـ :ـ لـقـدـ كـانـتـ الـفـتـرـةـ الـتـيـ عـاشـتـ فـيـهـاـ بـعـضـ الـأـقـطـارـ الـإـسـلـامـيـةـ بـعـدـةـ عـنـ الـحـضـارـةـ الـخـدـيـثـةـ بـخـيـرـهـاـ وـ شـرـهـاـ ،ـ زـاهـدـةـ فـيـ مـرـاقـقـهـاـ وـ أـسـالـيـبـهـاـ ،ـ مـنـطـوـيـةـ عـلـىـ نـفـسـهـاـ ،ـ لـقـدـ كـانـتـ هـذـهـ الـفـتـرـةـ دـائـماـ قـصـيـرـةـ مـضـطـرـبـةـ مـهـدـدـةـ بـالـغـزـ وـ الـحـضـارـيـ ،ـ وـ

الثقافي من الخارج ، و موجات هذه المدنية العاتية التي تتغلغل إلى الجذور و الأعماق ، و تذهب بالقيم و المفاهيم و مبادئ الأخلاق ، و يشك كل عاقل عرف قوة نفوذ هذه الحضارة و سعته و عرف ضعف هذه الأقطار الروحى و المادى و فقدان ما يقاوم هذه الحضارة من إيمان و قوة شخصية و ثقة ، يشك في بقاء هذه الأقطار في سلخها و حصارها المدى و الثقافي و الاجتماعي ، و يشك في طول هذه الفترة ، لأنها — مع وجود هذا الضعف في الشخصية و الفقر في القوة المعنوية — غير صالحة للطول و الامتداد ، فضلا عن البقاء و الاستمرار .

زار الأستاذ محمد أسد — الذي عاش في أوروبا و تحول في العالم الإسلامي — الجزيرة العربية الوادعة الهدامة في سنة ١٩٣٢ م و هي لا تزال متسمكة بتقاليدها العربية الإسلامية أشبهه بالماضي منها بالحاضر ، لم تجس خلاها الحضارة الغربية ، ولم تفتح سورها — الرملي — الأساليب الغربية و المصنوعات الحديثة ، فشك في طول حياة هذه العزلة ، و بعد عن تأثير الحضارة الغربية التي طوقت الجزيرة ، فقال :

« و عند ما وصلت بتفكيرى إلى ذلك الحد : سألت نفسي فجأة ، إلى متى يستطيع زيد (١) و قوم زيد (العرب) أن

---

١ - البدوى العربى الذى كان مرافق محمد أسد فى مغامراته و رحلاته فى صحراء العرب ، و دليله فى هذه الرحلة .

يحتفظوا بسماسكهم الروحي في وجه الخطر الذي يطبق عليهم بكثير من الخداع و المكر ، و بصورة لا تعرف الرحمة ، أو اللين ؟ نحن نعيش في زمن لم يعد الشرق فيه يستطيع أن ييق ساكنه سليماً في وجه الغرب الآخذ بالاطلاق عليه ، إن آلافاً من القوى -- السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية -- تطرق أبواب العالم الاسلامي فهل يخضع هذا العالم و يستسلم إلى حضارة الغرب و يفقد خلال التفاعل ، لا أشكاله و أنظمته التقليدية فحسب بل جذوره الروحية أيضاً (١) »

نعم لم تطل هذه الفترة فلم تثبت هذه البلاد المقدسة أن غزتها الحضارة الغربية و تدفق فيها سيل المصنوعات الحديثة ، و المستوردات الغربية ، و أكثر من أسباب الترف و من « الكاليات » فشحنت الأسواق ، و ملأت البيوت ، و قضت على التكشف في الحياة و صفات الفتوة و الفروسيّة التي عرف بها العرب من قديم الزمان ، و كانت من أسباب قوتهم و انتصارهم ، - و ظهر اتصال الجزيرة بالغرب عن طريق الحضارة و الثقافة و السياسة و عن طريق البترول ، و كان هذا الاتصال و هذا الاقتباس من الغرب في مجال الحضارة و التجارة و الثقافة عن ارتجاع و تهور و من غير تفكير هادئ و تصميم سابق ، فأصبح هذا الاستسلام للغرب الذي تخوف منه الأستاذ محمد أسد

٢ - الطريق إلى مكة ص ١٤٠

أمراً واقعاً ، وأصبحت الجذور الروحية – فضلاً عن الأشكال  
و الأنظمه التقليدية – مهددة .

التقاليد و العادات لا تستطيع  
أن تقاوم الحضارة الجديدة : ولن تطول هذه الفترة - السلبية -

في أى قطر من أقطار الشرق لأن التقاليد و العادات و الجماز  
الاجتماعي أو الاداري الذى ليس وراءه عقيدة راسخة قائمة على  
فقه و بصيرة ، و ليس معه ذكاء و المعية ، و المقدرة الكافية  
على تطبيق الحقائق و المبادئ الدينية الخالدة بالحياة المتطورة و  
حاجاتها الجديدة ، و التمييز بين ما يصلح للاقتباس من الحضارة  
الجديدة و منتجاتها و ما لا يصلح ، لا يستطيع أن يقف طويلاً  
في وجه هذه الحضارة العارمة ، و كل قطر أو قيادة تمنى نفسها  
بالاحتفاظ بالقديم ، و الانحصار في دائرةها من غير هذه المقومات  
التي ذكرناها و من غير إيمان جديد قوى ، و عقل واع منتج  
مهددة بالانهيار عاجلاً أو آجلاً .

و إذا لم يكن الإقتباس من الحضارة الغربية و مرافقوها  
و منتجاتها عن إرادة و تصميم ، و باختيار و تمييز ، و عن  
فقه و بصيرة ، هجمت هذه الحضارة على هذا القطر أو المجتمع  
غصباً ، و على الرغم من قادته و ولادة الأمر فيه ، و على الرغم  
من العلماء و زعماء الدين ، و رحب بها أهل البلاد ، و فتحوا  
لها الأبواب ، و التهموها – بصالحها و فاسدها – في نهاية

و جشع ، و اكتسحت القيم الدينية و الخلقة و غلب قادة البلاد  
أو ولاتها على أمرهم ، و أفلت منهم الزمام إلى آخر الأبد .

لابد من التخطيط

و إصلاح الأوضاع : لقد أصبحت الأقطار الشرقية - من غير استثناء تقريرياً - فريسة الحضارة الغربية في الزمن الأخير ، و انجرفت في سيلها العارم من غير امتناع ، أو مقاومة لفقدان العقل الراوح المترن في القيادة و فقدان « عملية التمييز و الاختيار المحكمة » في الوجمدين . و عدم وجود التصميم أو التخطيط الحكيم في نظام المعارف و تنظيم البلاد تنظيماً جديداً قاماً على التجارب الحديثة ، و بسبب وجود نظم و أوضاع كانت نتيجة الانحراف عن التعاليم الإسلامية الصحيحة ، لا يقرها العقل و العدل ، و لا تصلح للبقاء في أي عصر من العصور فضلاً عن هذا العصر القلق الشائر .

و هذه قصة أفغانستان التي عرفت في الشرق بشدة محافظتها و تمسكها بالقديم و التقاليد الأفغانية القديمة ، فقد استطاعت أن تعيش بعيدة عن تأثير الحضارة الغربية محتفظة بتراثها القديم من ثقافة و اجتماع ، تزهد في الجديد الصالح حتى رفعت الحجاب بينها و بين الحضارة أخيراً و بدأت تهجم على الحضارة الغربية و عاداتها و تأخذها بنهاية و شغف .

و تكاد تكون هذه قصة اليمن ، و جميع الأقطار الإسلامية

التي أقامت حولها سورةً عالياً يمنع من دخول كل جديداً ، من العلوم المفيدة ، و التنظيمات الصالحة ، و الوسائل البرية و طرق ترفيه الشعب ، و تقوية البلاد عسكرياً و صناعياً و تمويناً .  
و لقد كان الوعي الإسلامي كافياً و كافلاً لصلاح هذه الأوضاع و لكنه كان ضعيفاً أو مغلوباً على أمره ، حتى جاءت هذه الحضارة المادية الشائرة تنسادي في شيء كثير من الغلو و الارساف بالحرية و المساواة ، و تدعوه إلى قلب الأوضاع القديمة منها كانت ، فتفشى القلق و التذمر في هذا المجتمع ، و قوى الشعور و تضخم بفساد هذه الأوضاع و عدم صلاحيتها للبقاء ، و جاشت النفوس بالكرامة و الثورة على الأوضاع القائمة منها كانت عاقبتها ، و هذا سر ظهور الثورات العسكرية في الأقطار الإسلامية ثورة بعد ثورة ، و حكم عسكري على اثر حكم عسكري آخر .

سبب حدوث الثورات في العالم الإسلامي و علاجه : و لعل العالم الإسلامي كان أكثر استعداداً و تهيئاً لهذه الثورات لوجود الوعي الديني ، الذي يبعث على القلق و الانكار في هذه البلاد أكثر من عالم آخر أو مجتمع آخر ، أو لفساد الأوضاع فيه أكثر من أي ناحية . و مادام التخلف في الحياة و القوة و مادام الفقر المدقع في بعض الطبقات الذي لا يجد معه صاحبه ما يقيمه الصاب ، و يكسو

العورة ، و يمسك الرمق ، و مدام الثراء الفاحش ، و المكتناف  
المجرم و العبث بالآدمواه إلى حد السفاهة و الجنون ، و مدام  
الترف و الفجور و الاستهتار في طبقات الامرا" و الأغنياء  
تروى قصصه المضحكة المبكيه في كل ناد و في كل صحيفه ، و مدام  
الجهل ضاربا أطنايه على الشعب ، و مدام العلامه و زعماء الدين  
يتقاضرون عن أدائهم و احتجبهم الدين ، و إزاجاء كلية الحق أمام  
الأقواء و الأغنياء و يتغافلون في المناصب و الوظائف و  
يتصارعون على التافهه من الخلافيات و الحسيس من المادة ، و  
حكاياتهم تروى و تتناقل ، و مادامت التربية الدينية و الأمثلة  
العملية — في الورع و الزهداده و سمو النفس و الشجاعة الدينية —  
مفقودة أو نادرة في حكم المعدوم ، و مادامت الدعايات و  
الدعوات تسرب إلى المجتمع و تجد مرتعا خصبا في النفوس ،  
و أدلة و مؤيدات في الأوضاع ، مadam هذا الوضع الغير الطبيعي  
و الغير الاسلامي سائداً في هذه الاقطار الاسلامية فانها مهددة  
— لا محالة — بالفوضى الخلفية و السيمانية ، معرضة للثورات  
العسكرية او الشعبية ، واقفة على فوهه بركان متهدئ للاينفجار  
في أي وقت كان .

و لا يمنع من ذلك سلطة قوية ، أو عقاب صارم ، أو محااسبة دقيقة ، أو مراقبة تحاسب على الناس الأذفاس و تتبع الخواطر و المهاجم ، و لا دعاءات صحفية أو إذاعية ، و لا ينزل

أموال طائلة على أصحاب الأغراض والمطامع ، و لا مآدب سخية في السفارات ، و لا مشروعات ترضي أصحاب العاطفة الدينية ، إنما سبيله مواجهة الحقائق بشجاعة و علم ، و إصلاح الأوضاع بخلاص و صدق ، و إزالة ما يجب إزالته من الفساد ، و تحقيق ما يجب تحقيقه من المطالب ، و تحقيق العدالة الاجتماعية كما أمر بها الإسلام و ثبت في صريح القرآن و صحيح السنة ، و السعي الحثيث لرخاء الشعب ، و أن يجد كل فرد من أفراد الشعب – بقدر الامكان – قوته ، و منع البذخ الذي يحول بين الشعب و قوته ، و « حاجياته » ، و أن يسبك نظام المعارف سبكاً جديداً يتفق مع عقيدة هذه البلاد و رسالتها و مع تطور العصر الحديث و علومه الجديدة ، و يخلق في الجيل الجديد الإيمان و الخلق و الاستقامة و الثقة بالنفس ، و الاعتزاز بالدين و الحماة في سبيله ، و يخلق فيه روح الابتكار و الاستقلال الفكري ، و العصامية و مواجهة الغرب بشجاعة و ذكاء ، و إعادة الروح الدينية و الإيمان القوى . و الشعور الخلقي ، و الوعي الإسلامي ، في الشعب ، و إزالة القلق و التذمر بازالة أسبابهما و دواعيهما ، و باصلاح الأوضاع و السير و الاقتباس من الغرب ما يصلح لشعب إسلامي ، و يتفق مع عقيدته السمحنة ، و ما له قيمة عملية إيجابية ، و ما يقوى الشعب و ينفعه في كفاح الحياة و المجد و الدعوة إلى الله .

هذا هو السبيل الوحيد لا إقرار الأمان و السلام ، في هذه المناطق الشرقية الإسلامية ، و بقاء هذه الشعوب على إسلاميتها و عقيدتها و سيرتها الدينية ، و بعبارة علمية مركزة • إن العالم الإسلامي و أقطاره في حاجة إلى بناء مجتمع إسلامي تقدمي عادل تستطيع فيه الطريقة الإسلامية في الحياة أن تغير عن نفسها تعبيراً عملياً و ثقافياً (١) ) •

**الموقف الثاني موقف الاستسلام و التقليد :** و موقف الثاني ، موقف الاستسلام و الخضوع الكامل ، موقف المقلد المؤمن المتخمس ، و التلميذ البار الصغير الذي لم يبلغ بعد سن التمييز ، و هو أن يقبل العالم الإسلامي — أو جزء منه — هذه الحضارة — المادية الآلية ذات الطبيعة الخاصة — بحذافيرها ، يقبلها بعقائدها الأساسية ، و مناجها الفكريّة ، و فلسفاتها المادية ، و نظمها الاقتصادية و السياسية ، التي نشأت و اختمرت في بيئـة بعيدة عن بيئـة هذه الأقطار تحت ضغط عوامل و حوادث خاصة ، و بتوجيهها ، و يحاول تطبيقها في هذا البلد الإسلامي برمتها ، و يتتحمل في سبيل ذلك كل صعوبة و عنـت ، و يدفع له أعظم ثمن ، و أبـظـقـ قـيمـةـ .

---

١ - استندنا في هذا التعبير من بعض ما جاء في كتاب «الطريق إلى مكة» ،  
للأستاذ محمد أسعد حسـن . ٢٢٠ .

حركة ، التغريب ،

في تركيا وأسبابها : وقد سبقت — إلى هذا الأسلوب من التفكير و المنهج من العمل — تركيا الإسلامية ، وكان ذلك نتيجة طبيعية لعوامل كثيرة ، و رحلة طويلة ، فقد حاربت أوروبا مدة طويلة من غير أن تستعد لهذه الحرب ، و تسليح بسلاح عدوها العلمي و الصناعي ، و فرطت في اقتباس العلوم المفيدة من أوروبا و الصناعات و الفنون الحربية و التنظيم الإداري تفريطًا مجرماً ، و أبدى العلماء و زعماء الدين ضعفًا و قصوراً في توجيه الأمة و البلاد توجيهًا علميًّا و فكريًّا ، و في الإشراف على اتجاهاتها التي يفرضها الزمان و المكان ، و تغير الأحوال في العالم كله ، و تقرير الصالح منها ، و تزييف الطالح ، و وقفوا على ما وقف عليه العلم و المعرفة و التفكير ، في القرن الثامن عشر ، و فوق كل ذلك فقد استغل السلاطين — إلا من عصم ربك — اسم الدين و اسم الخلافة لصيانة مصالحهم الخاصة ، و تحقيق رغباتهم ، و كانوا من أسباب تأخر البلاد ، و الهزائم و الاتهادات التي تحققت بالأمة ، و مالأة الأعداء في أحيان .

أما الجيل الجديد ، الذي كان يتلقى ثقافته في عواصم أوروبا أو في بعض الكليات العصرية ، في تركيا ، فقد نشأ على الاستهانة بقيمة الدين و اليأس من مستقبله ، و كراهة رجاله و احتقارهم و على تقديس الحضارة الغربية و تمجيدها ، و الخضوع الزائد

للقيم المادية و المفاهيم الغربية ، و فقد في هذا الجيل العقل النابغ المتعمق الذي يقدر على نقد فلسفة الحياة الغربية و معرفة جوانب الضعف فيها ، و جوانب الإفراط و التطرف و معرفة ما يصلح لتركيا الرعيمة للعالم الإسلامي اقتبسه و الأفاده منه ، و ما لا يصلح و لا يتفق مع طبيعتها و تاريخها و مكانتها في العالم و مركزها في الشرق الإسلامي ، و أكثرهم من نوع « العسكريين » و المعلمين الذين لم تكن ثقافتهم واسعة و لا عميقه و لا حرة(١) أو الذين انتهت بهم تجارب حياتهم الخاصة ، و ما لقوا من العلماً و « المحافظين » من تشبيط أو عدم تشجيع ، و ما جربوه فيهم من جمود و ضيق تفكير ، و ما رأوه في الجيل المسلم القديم ، و زعماءه من النفاق ، يقولون ما لا يفعلون ، و ينهون عن شئ و يأتونه ، أو ما شاهدوه في البلاد من تأخر و ضعف

---

١ - تقول الفاضلة خالدة اديب خاتم في كتابها « الصراع في تركيا بين الغرب و الشرق ، كان أعضاء جمعية الاتحاد و الترقى الشبان من صغار الموظفين الرسميين ، أو ضباطاً في الجيش ، ولم يكن فيهم في أول الأمر فرد واحد ، حازآ على مكانة علمية سامية ، ويفهم الفرق بين العصر القديم و العصر الحديث في ضوء التحليل و النقد العلمي ، ولكن هؤلاء الشباب كانوا أقرب إلى الشعب و كانوا إنتاجاً وطنياً خالصاً ، وكان معظمهم من أهل مقدونية الذين اشتهروا بحب الواقعية و القسوة ، و لا يتحاشون عن شئ في سبيل الوصول إلى غايتهم ، لذلك رغم أنهم كانوا يهدون إلى غاية نبيلة ، كانوا يستخدمون جميع الوسائل للوصول إلى غرضهم من غير احتشام و تورع .

Conflict Between Est - West In Turkey

انتهى بهم كل ذلك إلى الثورة على كل قديم ، و على كل موجود ،  
و على التصميم على « تغريب » تركيا .

ضياء كوك الب و فلسفته : و وجده مثل ( ضياء كوك  
الب ) ( ١ ) في مجال التفكير ، الذي دعا بكل قوة و صراحة  
إلى سلخ تركيا من ماضيها القريب ، و تكوينها تكويناً غريباً  
قومياً خالصاً ، و إثمار الحضارة الغربية على أساس أنها امتداد  
للحضارة القديمة التي ساهم الأتراك — على زعمه — في تكوينها  
و حراستها ، يقول في مقالة له :

« إن الحضارة الغربية امتداد لحضارة حوض البحر  
الإيبي المتوسط القديمة ، و كان مؤسسو هذه الحضارة — التي  
نسميتها بحضارة البحر الإيبي المتوسط — من الأتراك ، مثل  
السماريين ، و الفينيقين و الرعاة ، لقد كان في التاريخ ، عصر  
طوراني قبل العصور القديمة ، لأن سكان آسيا الوسطى القدامى  
كانوا أجدادنا و في زمن متاخر جداً ، رقي الأتراك المسلمين  
هذه الحضارة و نقلوها إلى الأوروبيين ، و بتحطيم الإمبراطوريتين

١ - ولد في سنة ١٨٧٦ م و تعلم في استنبول ، و عين استاذاً لعلم الاجتماع ،  
في جامعة استنبول ، و كتب معظم مقالاته بين ١٩١١ و ١٩١٨ م و بين  
١٩٢٢ و ١٩٢٤ السنة التي توفي فيها ، و يعتبر كمال أتانورك تميذاً له في آرائه  
و اتجاهاته ، و مطبقاً لما رسمه ضياء من المشروعات و المخططات الفكرية في  
بحوثه و مقالاته .

الرومانيتين الغربية و الشرقية أحدث الأتراك انقلاباً في تاريخ أوروبا ، لذلك نحن جزء من الحضارة الغربية و لنا سهم فيها ، و يذكر موجبات اعتناق الحضارة الغربية و ما يحدث ذلك دون انقلاب ، و ما يفيض من قوة و روح جديدة ، و مركز في العالم ، و أنه لا يستلزم الانسلال من الدين القديم ، فيقول : « حين تقطع أمّة شاؤاً بعيداً في شوؤها ، ترى من الواجب أن تغير حضارتها أيضاً ، لما كان الأتراك قبل رحالتهم في آسيا الوسطى دانوا بحضارة الشرق الأقصى ، و لما اتهوا إلى عصر « السلطنة » دخلوا في مساحة الحضارة البيزنطية ، و الآت في طور انتقامهم إلى الحكومة الشعبية ، هم مصممون على قبول حضارة الغرب .

إن شعوبنا تدين بديانات مختلفة يمكن أن تدين بحضارة واحدة ، إن اليابانيين و اليهود يشاركون الأوروبيين في حضارة واحدة ، رغم اختلافهم في الدين و العقيدة ، و بعبارة أخرى الدين و الحضارة شيئاً مختلفان ، لذلك من المغالطة أن تسمى « حضارة إسلامية » ، كما لا يصح أن تسمى « حضارة مسيحية » الدين محدود في العقيدة و الطقوس التي لا صلة للفنون و العلوم بها »

« لما حرر الغربيون أنفسهم من رواسب القرون الوسطى كان المسيحيون الخاضعون للهيكلية ، الارثوذكسيّة في روسيا

لا يزالون عبيداً لها ، و قد عانى بطرس العظيم صعوبات شديدة في كفاحه لتحرير الشعب الروسي من سيطرة الحضارة البيزنطية ، و تقديمهم إلى الحضارة الغربية ، و لكنى يعرف الإنسان ما هي الوسائل و الأساليب التي يجب أن تستخدم لتغيير البلاد و طبعها بطابع الغرب يكفي أن يدرس تاريخ إصلاحات بطرس ، و كان الناس يعتقدون إلى ذلك الحين أن الروسيين لا يصلحون للتقدم ، و لكنهم بعد الثورة بدأوا يتقدمون بسرعة زائدة ، و يقطعون شوطاً بعيداً في ميدان النهضة ، و هذه الحقيقة التاريخية تكفى لاثبات أن الحضارة الغربية هي الشارع الوحيد إلى التقدم « علينا أن نختار إحدى الطريقين ، إما أن نقبل الحضارة الغربية أو نظل مستعبدين لقوى الغرب ، لابد أن نختار أحد الأمرين ، يجب علينا أن نسيطر على الحضارة الغربية لندافع عن حرريتنا و استقلالنا »

دور تركيا التقليدي : إن قادة هذا الفكر و الدعوة التي يزعمها ضياء كوك الب ، كانوا يستحقون إعجاباً كبيراً من المؤرخين المنصفين ، و رجال الفكر الأحرار في العالم الإسلامي ، و إن تركيا كانت تحمل مركزاً خطيراً . في خريطة العالم السياسية ، و الثقافية ، و الاجتماعية ، و قد تغير مجرى التاريخ إذا سيطرت على الحضارة الغربية ، و امتلكت ناصيتها تقادها و تسير بها ، إلى غاية مرسومة ، و تصرف فيها تصرف القائد

الآخر ، الذي يملك إرادته ، و العالم المجتهد الذي يفكّر بعقله ، و كانت القدوة الحسنة للشعوب الشرقيّة الإسلاميّة التي تعانى الصراع العنيف بين الشرق و الغرب ، و تواجهه تحدي الحضارة الحديثة السافر ، و تنظر إلى تركيا كزعيم و إمام ، و أول من أشَّكتُوا من الشعوب الإسلاميّة بنار هذا الصراع بين الغرب و الشرق و واجهه زحف الحضارة الغربيّة و فلسفة الحياة الحديثة.

ولكن ذلك — مع الأسف — لم يتحقق ، إن الذي تحقق هو تقليد تركيا للحضارة الغربيّة و تمسكها ببعض شعاراتها و مظاهرها ، و الإصلاحات السطحية التي لا تقدم و لا تؤخر في حياة الشعوب و الأمم و المجتمعات و المدنیات ، و لاصلة لها بالقوة الحقيقية و العظمة السياسيّة ، و التي فصلت تركيا عن ماضيها القريب ، و عن التراث العلمي الغني الذي ساهمت في تكوينه الأجيال الكثيرة و العقول الكبيرة ؛ و فصلت تركيا — زعيمة العالم الإسلامي بالأمس — عن العالم الإسلامي ، و أحدثت جوهرة عميقة بين رجال الحكم و التوجيه ، و بين الشعب المسلم القوي ، الفائز بالحب و الإيمان و العاطفة الدينية ، الذي ملا قلوب العالم مهابة و إجلالا لقوة هذه العاطفة و تدفقها . و استطاع أن يقف في وجه أوربا و غاراتها الساحقة ، و مؤمراتها الدقيقة المستمرة ، التي لم تقطع و لم توقف يوما واحدا و التي لا قبل لامة عادية بها ، رغم الضعف الشديد المستمر في

الطبقة الحاكمة ، و الخيانة في الضباط و أفقد الشعب النشاط و الثقة ، و الحماسة التي كانت من أبرز مزايا هذا الشعب المسلم الحالد . و أحدثت اضطراباً في المجتمع و فتوراً في إجابة الدعوات التي تصدر من القيادة و مركز الحكم ، و احتاجت الحكومات المختلفة إلى كسب هذا الشعور و كبح هذه العاطفة ، و تحويل الأمة إلى المادية و القومية و الحضارة الغربية ، و الانحصار في دائرة التفكير الضيق و المساحة المحدودة بعنف و قسوة لا نظير لها ، ذهب ضحيتها رجال كان فيهم الغباء الكبير للامة ، و الخير الكبير للبلاد ، و لا يزال الصراع قائماً بين العقلية الحاكمة و عقلية الشعب المغلوب على أمره ، و لا تزال الشرارة - اليمانية - كامنة في النفوس و القلب مستعدة للإلهاب بأدنى حركة و أضعف إشارة .

إن دور الشعب التركي في اقتباس الحضارة الغربية كان دوراً تقليدياً يخلو من كل « أصالة » و من كل ابتكار ، و من كل عصامية ، و من كل إنتاج ، فلم تعمل شيئاً جدياً للسيطرة على هذه الحضارة التي انطلقت من الغرب المادى ، السيطرة التي دعا إليها ، و حلم بها ، ضياء كوك الب ، في مقالته السابقة ، و لم تعمل شيئاً لامتلاك ناصيتها ، و التغلب على قيادتها ، إنما كان دورها دور الإستيراد و دور الاستعارة و دور التطبيق ، لا أقل ولا أكثر ، و لم ينبع فيها في هذه الفترة نابغة ، في

العلوم التطبيقية ، و لا علائق في العلوم والأداب ، و لامؤسس مدرسة جديدة من مدارس الفكر والفلسفة ، و لا من يضيف إلى هذه الحضارة شيئاً أصيلاً له قيمة العلمية ، و لذلك بقيت شعراً متوضطاً يعيش على حاشية الشعوب الأوربية، ولم يكن هذا قيمة ما ضحى به هذا الشعب من السطوة السياسية والحماسة الدينية ، و الدوافع الخلقية والزعامة في العالم الإسلامي .

### شخصية أتاتورك

#### وما ثرته التقليدية : لم يكن كمال أتاتورك (١) – مؤسس تركيا

١ - هو مصطفى كمال باشا بن علي رضا بك ، ولد بمدينة سلانيك سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨٠ م ، وأصل أسرته من قرية بالاناضول ، و التحق بمدرسة ابتدائية تسير على النهج الأوربي الحديث ، ثم بمدرسة أهلية ثانوية فمكث بها سنة ثم تركها و دخل مدرسة حرية ، ثم انتقل إلى المدرسة الحرية باسطنبول و تخرج منها ضابطاً ، وكان ذلك في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ، و اشتراك في بعض المؤامرات ضده ، فقبض عليه و نفي إلى دمشق و هرب منها إلى سلانيك ، و التحق بجمعية الاتحاد والترقى ، و التحق بالجيش ، و عهد إليه بالاشراف على سكة حديد مقدونية ، و خلع السلطان عبد الحميد ١٣٢٧ - ١٩٠٩ ، و قامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٣٢٢ هـ ١٩١٤ م و انضمت تركيا إلى ألمانيا و النمسا ، و اشتراك كمال في هذه الحرب و كان له موقف عظيم في معركة غالیبولي سنة ١٩١٥ م فذاعت به شهرة و انتهت الحرب سنة ١٩١٨ م بهزيمة ألمانيا و تركيا ، و احتلت إنجلترا و حلفاؤها استانبول ، و اختعل الأمن في بلاد الاناضول فاختير كمال ليقوم بحفظ النظام سنة ١٩١٩ م و أعلن الحرب على اليونان الذين استولوا على أزمير و انتصر عليهم سنة ١٩٢١ م في معركة سقارية و لقب بالغازي ، و أقام في أنقرة حكومة مستقلة ، و ألغى الخليفة و سلطنة آل عثمان ، و أقام جمهورية علمانية كان أول رئيسها سنة ١٩٢٤ م و استمر على ذلك حتى توفي سنة ١٩٣٨ م .

الجديدة - عالماً واسع الثقافة ، أو مفكراً عميق النظر . إنما كان زعيماً قوياً قوى الإرادة . و حاكماً قوياً شديد التنفيذ يوجز وصفه مؤرخه الإنجليزي الشهير ، فيقول : « في مواهبه و كفایته كان جندياً ، وفي غربته كان معلم ثانوية ، وفي اتحاده كان سيناً ، (١) »

و مأثرته التاريخية أو بطلاته - كقائد و زعيم - مقصورة على « عملية النقل والتحويل » التي قام بها و نجح فيها أكثر من غيره ، يقول المؤرخ السابق ملخصاً دوره « العظيم » الذي مثله في تاريخ تركيا الأخير .

« انطلق « كمال أتاتورك » يكمل عمل التحيط الشامل الذي شرع فيه ، و قد قرر أنه يجب عليه أن يفصل تركيا عن ماضيها المتعفن الفاسد ، يجب عليه أن يزيل جميع الانقضاض التي تحيط بها ، هو حطم فعلاً النسيج السياسي القديم ، و نقل السلطة إلى (ديمقراطية) و حول الإمبراطورية إلى قطر فحسب جعل دولة دينية جمهورية عادلة .

إنه طرد السلاطات ( الخليفة ) و قطع جميع الصلات عن الإمبراطورية العثمانية ، و قد بدأ الآن في تغيير عقليّة الشعب بكلها ، و تصوراته القديمة ، عاداته ، لباسه ، أخلاقه ، و تقاليده ، أساليب الحديث ، و مناهج الحياة ، المزليّة التي

تربيته بالماضي ، و بالبيئة الشرقية ، لقد كان ذلك أصعب بكثير من تكوين الجهاز السياسي من جديد ، و كان يشعر بصعوبية هذه العملية فقد قال مرة : « انتصرت على العدو ، و فتحت البلد هل استطيع أن انتصر على الشعب ؟ » (١) ، إن انتصر على الشعب حقاً فقد جعل الدولة علمانية ، ليس الاسلام دينها الرسمي ، و أحدث الفصل بين الدين والسياسة و قرر أن الدين قضية شخصية ، لكل فرد أن يختار له ديننا و يدين به ، من غير أن يكون له دخل في السياسة ، و الادارة ، و ألغى الخلافة ، و ألغى المحاكم الشرعية ، و قانون الشريعة الاسلامية ، و قرر العمل بالقانون المدني السويسري ، و القانون الجنائي الايطالي ، و القانون التجارى الالمانى ، و أدخل الأحوال الشخصية في القانون المدني الأوروبي ، و منع التعليم الدينى ، و عطل مراكزه ، و منع الحجاب ، و قرر السفور و التعليم المختلط ، و ألغى الحروف العربية و أبدلها بالحروف اللاتинية ، و منع الأذان بالعربية و جعله بالتركية ، و غير اللباس ، و ألزم ليس القبعة ، و بعبارة مورخه .

« قد حطم الأساس الدينى و غير وجهة نظر الشعب التركى و الحكومة التركية ، (٢)

---

(1) Grey Woolf . P 287

(2) P . 190

إن «أتاترک» نجح في إقصاء العنصر الإسلامي و العربي من الحياة التركية ، و لا يدرى أحد هل كان هذا الانتصار موقتاً تقضى عليه ثورة الشعب التركي المسلم ، و اتفاضته الإيمانية ، أم تطول مدته ، و على كل فقد كان تغييرًا شاملًا عميقاً.

### تأثير أتاترک في

العالم الإسلامي : و هكذا كانت تركيَا — مع الأسف — طليعة حركة التجديد — و بعبارة أصح التجدد — و طليعة «التغريب» و قدوة الزعماء «القدميين» في الدول والحكومات والأقطار الإسلامية ، و كان كمال أتاتورک رمزاً للتقدم و «الثورة» ، في كل بلد ناهض ، و في كل مجتمع متعدد في العالم الإسلامي ، و المثل الأعلى للقادة و السياسيين و المفكرين المسلمين على اختلاف أجناسهم و بيئاتهم ، و لا نعرف زعيماً — على فقره في النبوغ العقلي و التعمق — من زعماء البلاد الإسلامية أثر في العقول و النفوس ، و آثار الاعجاب بشخصيته و أعماله و آثار الرغبة في تقليده و الاحتذاء به ، مثل ما فعل «كمال أتاتورک» في الزمن الأخير .

و كان السبب الأكبر في ذلك ما اشتهر أنه أفقد تركيَا من الخطر المدحّق بها الآخذ بالخناق ، و أسس حكومة قوية ، و كسب احترام الحكومات الأوروبية و زعماء السياسيين في أوروبا ، و كان المسلمون في الشرق متطلعين إلى القوة السياسية

و المجد و الاستقلال ، يخضعون بالاجلال لكل من يتسم بذلك أو يسعى إلى ذلك ، خضعوا لأتاتورك و دانوا له بالحب العميق و التقديس المفرط . و نسوا في تقديسهم ما للشعب التركي المؤمن الشجاع من سهم و من فضل في هذه الثورة ، و في الترد على الأوضاع القاسية ، و الأمم الضاربة ، و في بناء هذا ~~الكيان~~ القومي المتين ، و ردوا الفضل كله في ذلك إلى عبقرية « كال » و قيادته الفذة .

و السبب الثاني أن اصلاحاته صادفت رغبة في نفوس الزعماء القوميين ، و عبرت عنها تجيش به نفوسهم من القلق و الثورة على القديم ، و التحرر من ربقة الدين ، و الاتجاه بشعوبهم إلى الحضارة الغربية ، و منها كانت الأسباب فان كال أتاتورك قد حل محلًا في النفوس لم يشغلها زعيم شرقي من زمن طويل . و كان له تأثيره المتوقع في اتجاه الشعوب و الأمم الإسلامية و الموقف الذي اتخذه أبناء الحضارة الغربية .

### الصراع بين الشرق

و الغرب في الهند : و كان المجال الثاني الذي ظهر فيه — لعوامل سياسية و ثقافية — الصراع بين الشرق و الغرب واضحًا ، و كان ملتفاً باختيار أحد الطريقيين ، الحياة الإسلامية على أساس العقيدة و الإيمان ، و الحياة الغربية على أساس القوة و التقدم . هو الهند التي توطدت فيها الحكومة البريطانية ،

الزعيمة للحضارة الغربية في الشرق و زحفت إليها العلوم الحديثة و التنظيمات الجديدة ، و ما تستتبعها من آلات و مصنوعات و آراء و فلسفات ، و كان الشعب الإسلامي الهندي منهوك القوى ، مثخنا بالجراح ، مجروح الكرامة ، تعانى دهشة الفتح و عار المزيمة ، و جيشاً من التهم و الظنون ، و يواجهه فاتحًا ممتلئاً بالقوة و الشباب و الثقة ، و حضارة زاخرة بالجدة و النشاط و الاتاج ، و قضايا كثيرة و مشكلات تطلب الحل السريع الحازم ، و الموقف الواضح الحاسم .

### القيادة الدينية

و المدرسة القديمة : في هذه الساعة العصيبة الدقيقة ، و في هذه الحالة النفسية المحرجة برب في الميدان نوعان من القيادة ، أولهما القيادة الدينية التي يتزعمها علماء الدين ، و القيادة الثانية، يتزعمها سيد أحمد خان و تلاميذه و أنصاره من أهل المدرسة الجديدة .

أما علماء الدين فقد كانوا أقوى علماء العالم الإسلامي شخصية دينية ، و من أكثرهم رسوخا في الدين ، و زهدًا في الدنيا، و إيماناً للآخرة ، و غيرة على الإسلام و جهاداً في سبيله بالنفس و النفيس ، و لكن جوهر الخاص الذي عاشوا فيه ، و ثقافتهم القديمة ، لم تتمكنهم من السيطرة على هذه الحضارة الغربية و الثقافة الجديدة و قيادتها إلى ناحية جدية مجدية تعود

على الإسلام و المسلمين بالنفع و القوة .  
بِنَمَّا إِنَّ الْهُمْجِيَّةَ الَّتِي ظَاهَرَتْ مِنَ الْحُكُومَةِ الْأَنْجِلِيزِيَّةِ وَالْقَسْوَةِ  
النَّادِرَةِ الَّتِي عَامَلَتْ بِهَا الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ اعْتَبَرُوهُمْ أَصْحَابَ الْفَكْرَةِ فِي  
الثُّورَةِ الْفَاشِلَةِ سَنَةَ ١٨٥٧ م وَقَادَهَا (١) وَتَحْمِسُ الْحَكَامُ وَ  
الْوَلَاةُ الْأَنْجِلِيزُ لِتَشْرِيرَ الْمَسِيحِيَّةَ فِي طَبَقَاتِ الشَّعْبِ الْهَنْدِيِّ ، وَالسُّرْعَةُ  
الْزَّائِدَةُ الَّتِي كَانَتْ الْحَضَارَةُ الْغَرْبِيَّةُ تَتَشَرَّبُهَا فِي الْجَهَوْرِ وَتَأْثِيرُهَا فِي عَقِيدةِ  
الْمُسْلِمِينَ وَأَخْلَاقِهِمْ ، كُلُّ ذَلِكَ وَضَعُوهُمْ فِي مَرْكَزِ الدِّفَاعِ عَوْضًا عَنِ  
الْهُجُومِ ، وَجَعَلُوهُمْ يَفْكَرُونَ فِي الاحْتِفَاظِ بِالْبَقِيَّةِ الْبَاقِيَةِ مِنَ الْعَاطِفَةِ  
الْدِينِيَّةِ ، وَالرُّوحِ الْإِسْلَامِيِّ وَمَظَاهِرِ الْحَيَاةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالدُّعَوَةِ  
إِلَى التَّجَنُّبِ عَنِ هَذِهِ الْحَضَارَةِ وَالْإِبْتِعَادُ عَنْهَا مَا أَمْكَنَ ، وَجَعَلُوهُمْ  
يَفْكَرُونَ فِي بَنَاءِ مَعَاقِلِ الْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالثِّقَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ،  
وَالْعُلُومِ الشُّرُعِيَّةِ ، وَتَخْرِيجِ الْعُلَمَاءِ وَالدُّعَاءِ وَالْمَرْشِدِينَ مِنْ هَذِهِ  
الْمَعَاقِلِ الَّتِي سَمِيتَ بَعْدَ بَالْمَدَارِسِ الْعَرَبِيَّةِ .

وَكَانَ عَلَى رَأْسِ هَذِهِ الْحَرْكَةِ الْإِصْلَاحِيَّةِ وَالْتَّعْلِيمِيَّةِ الْمُنْتَجَةِ  
وَوَلَانَا مُحَمَّدُ قَاسِمُ النَّانُوتُوِيِّ (٢) مُؤَسِّسُ مَعْهَدِ دِيوبَندِ الْكَبِيرِ ، وَ

١ - إِقْرَأْ فَصْلَهُ الدُّورِ الَّذِي قَامَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ فِي تَحْرِيرِ الْهَنْدِ ، فِي كِتَابِنَا « الْمُسْلِمُونَ  
فِي الْهَنْدِ » ، ص ٨٤ - ٩٤

٢ - هُوَ الشِّيْخُ الْإِمامُ قَامِ بنَ أَسْدِ عَلَى الْبَكْرِيِّ النَّانُوتُوِيِّ وَلَدَ بِنَانُوَتَهُ سَنَةَ ١٢٤٨ هـ  
وَقَرَأَ عَلَى الشِّيْخِ مَمْلُوكِ الْعَلِيِّ النَّانُوتُوِيِّ وَأَخْذَ الْحَدِيثَ عَنِ الشِّيْخِ عَبْدِ الْغَنِيِّ بْنِ أَبِي  
سَعِيدِ الْدَّهْلَوِيِّ وَأَخْذَ الطَّرِيقَةَ عَنِ الْعَارِفِ الْكَبِيرِ الشِّيْخِ امْدَادِ اللَّهِ الْعَمَرِيِّ التَّهَانُوِيِّ  
وَأَسْهَمَ فِي ثُورَةِ سَنَةِ ١٨٥٧ عَلَى الْحُكُومَةِ الْأَنْجِلِيزِيَّةِ وَاضْطُرَ إِلَى الْإِخْتِفَاءِ مَرَّةً مِنَ  
الْزَّمَانِ وَتَبَنَى فِي كِتَّرَةِ تَأْمِيسِ مَدْرَسَةٍ كَبِيرَةٍ فِي دِيوبَندِ وَانْقَطَعَ إِلَيْهَا وَكَانَ لَهُ مَرَاقِفٌ

كان لهذه الحركة وقادتها فضل كبير في تسلك الشعب الهندي  
الإسلامي بالدين و شريعة الاسلام ، و تفانيه في سبيله ، والتماسك  
أمام الحضارة الغربية المادية الاحادية تماماً كما لم يشاهده في بلد  
إسلامي آخر تعرف بهذه الحضارة و وقع تحت حكم أجنبي ، و  
كانت دينه زعيمه هذا الاتجاه و المركز الثقافي ، الديني و  
التوجيهي الاسلامي الاكبر في الهند (١)

حركة ندوة العلامة : و كانت حركة ندوة العلامة الفكريّة التي أسسها مولانا محمد علي المونكيري (٢) و قادها الأستاذ شibli

\* عظيمة في مناظرة النصارى والآرية ظهرت فيها براعته وذكاؤه و إخلاصه و عارض قائد الحركة التعليمية الجديدة السيد احمد خان لآرائه الشاذة و حرفيته الزائدة في تفسير القرآن و الدعوة إلى تقليد الحضارة الغربية وقد اعترف السيد احمد خان بتبحره في العلم و إخلاصه في المعارضـة و زهدـه في زخارف الدنيا ، له مؤلفات بدـية شهرها تـحرير دـلـيـز ، و حـجـة الـاسـلام ، و آبـحـيات ، توفـي إـلـى رـحـمـة الله مـنـه ١٢٩٨هـ  
، أنظر فصل دـ مـراـكـزـ الـعـلـمـ وـ الـقـاـفـةـ الـاـسـلاـمـيـةـ ، فيـ كـتـابـ الـمـلـمـونـ فـيـ الـهـنـدـ

٢ - هو السيد محمد علي بن عبد العالى الحسينى ، ولد في كانواور فى ٣ شعبان ١٢٦٢هـ  
٢٨ يوليو ١٨٤٦م ، تخرج في مدرسة فيض عام كانواور ، و بايع الشيخ العارف فضل  
رحمه الله مراد آبادى و اختص به ، قاوم حركة التصير في الهند مقاومة فعالة و  
ألف و كتب و قام بجولات واسعة في البلاد و أسس ندوة العلماء في سنة ١٢١٠هـ  
- ١٨٩٣م ، و أنشأ دار العلوم التابعة لها في عام ١٢١٦هـ - ١٨٩٨م ، و قاوم حركة  
القاديانية في دہار ، و بايعه خلق كثير يعدون بالآلاف ، توفي في ٩ ربيع الأول  
سنة ١٢٤٦هـ و كان من كبار المخاصلين و العلماء الربانيين الذين شعرووا بتغير الأحوال و  
الأوضاع في العالم الإسلامي ، و تھضوا للتجديد في مناهج التعليم الديني .

النعمانى (٣) و زملاؤه ، و دار العلوم التابعة لها جديرة باحداث  
قطرة تصل بين الثقافتين الاسلامية و الغربية ، و الطبقتين ، علماء  
الدين و المثقفين العصريين ، و احداث فكر جديد يجمع بين  
محاسن القديم و الجديد ، و بتعبير أصحاب هذه المدرسة الفكرية  
« بين القديم الصالح و الجديد النافع » و « بين التصلب في  
الأصول و الغايات و التوسع و المرونة في الفروع و الآلات »  
فكانـت — لو قدر الله — خطوة مباركة و فتحاً جديداً يستحقـ  
التقليد في الأقطار و المجتمعات الاسلامية التي خاضت في ذلك العمدـ  
في معركة الصراع بين القديم و الجديد ، و لكنـ هذه الحركةـ  
لم تحظـ بالتعاون الذى كانت تستحقـه من كلاـ الطبقتين ، القديمة و  
المجـيدة ، لا تسعـ الفجـوة بينـهما ، و لـوجودـ التـطرف و المـغالـةـ  
فيـهما ، و للـخلافـاتـ التيـ حدـثـتـ فيـ صـفـوفـ العـامـلـينـ هـذـهـ الفـكـرـةـ ،  
و أـخـيرـاًـ لاـ آخرـاًـ لـدـمـ وـ جـودـ طـبـقـةـ منـ الأـسـاتـذـةـ وـ المـوجـهـينـ،

---

٣ - هو الشـيخـ شـبـلـ بنـ حـبـيـبـ اللهـ ولـدـ فيـ سنـةـ ١٢٨٤ـ هـ فيـ آعـظـمـ گـزـهـ ، و درـسـ  
زـمانـاـ فيـ ڪـلـيـةـ عـلـىـ گـزـهـ ، و صـحبـ السـيـدـ أـهـمـ خـانـ مؤـسـسـ ڪـلـيـةـ وـ أـنـكـرـ بعضـ  
اتـجـاهـاتـ الـمتـنـاطـرـةـ وـ فـارـقـ الـڪـلـيـةـ وـ زـارـ تـرـكـيـاـ وـ مـصـرـ وـ سـورـيـاـ ، وـ أـقـامـ فيـ حـيـدرـآـبـادـ  
خـمـسـيـنـ سـنـيـنـ ، مدـيرـاـ لـنظـارـةـ الـعـلـومـ وـ الـفنـونـ ، وـ أـسـهـمـ فيـ حـرـكـةـ نـدوـةـ العـلـمـاءـ وـ كانـ  
عـضـوـهاـ الشـيـطـ وـ الـشـرـفـ التـعـلـيمـيـ لـمـدةـ ثـمـانـيـ أـعـوـامـ ، ثـمـ استـقالـ وـ أـسـسـ المـجـمـعـ الـعـلـمـيـ  
الـمـعـرـوفـ بـدارـ المـصـنـفـينـ ، فـيـ آعـظـمـ گـزـهـ وـ أـلـفـ فيـ التـارـيخـ الـاسـلـامـيـ كـتـبـاـ مـهـمـةـ ، وـ كـانـ  
لـهـ مـكـانـةـ صـرـمـوـقةـ فـيـ الشـعـرـ وـ الـأـدـبـ وـ التـارـيخـ ، وـ مـنـ مـصـنـفـاتـهـ الشـهـورـةـ ، سـيـرـةـ الـمـامـونـ  
وـ سـيـرـةـ الـعـمـانـ ، وـ كـتـابـ الـجـزـيـةـ فـيـ الـاسـلـامـ ، وـ حـقـوقـ الـذـمـيـنـ ، وـ الـفـارـوقـ وـ شـعـرـ  
الـعـجمـ وـ غـيـرـ ذـلـكـ ، تـوـفـيـ فيـ ١٣٦٢ـ هـ بـيـلـدـةـ آعـظـمـ گـزـهـ .

الذين قد تبحروا في الثقافتين ، و قد أحسنوا هضمها ، و كونوا من هذه الموارد — التي قد تبدو متناقضة — رحيقاً صافياً شهياً نافعاً ، كما تعمل النحل من الأزهار والأشجار ، و بقى معظم الشعب يتأرجح بين طبقتين ، طبقة ترى العدول عن القديم ونظمه التعليمية و الانحراف عنها قيد شعرة ضرباً من التحرير أو نوعاً من البدع ، و طبقة تقدس كل ما جاء من الغرب و تبرئه من كل عيب و نقص ، و تعتقد بأصحابه العظام و العبرية ، في جميع الآراء و المذاهب الفكرية .

قيادة السيد أحمد خان

و مدرسته الفكرية : أما القيادة الثانية التي تزعّمها سيد أحمد خان فقد قام على أساس تقليد الحضارة الغربية ، و أساسها المادية و اقتباس العلوم العصرية بحذافيرها و على علاتها ، و تفسير الاسلام و القرآن تفسيراً يطابقان به ما وصلت إليه المدنية والمعلومات الحديثة في آخر القرن التاسع عشر المسيحي (١) و يطابقان هوى الغربيين و آرائهم ، و تقبلهما أذواقهم ، و استهانة بما لا يثبتنه الحس و التجربة ، و لا تقرره علوم الطبيعة في بادى النظر ، من الحقائق الغيبة ، و أمور الطبيعة (٢)

١ - وكان كما لا يتحقق دوراً لم تبلغ فيه العلوم الطبيعية نهايتها و اكتمالها ، وكانت لاتزال في دور الطفولة و النشوء و الارتفاع .

٢ - إقرأ للتفصيل و فهم أسلوب التفكير الديني الذي اتبعه سر سيد أحمد خان في آرائه الدينية و مناهجه الكلامية ، كتاب Religious Thought of

شاهد السيد أحمد خان (١) انهيار الحكومة الاسلامية المغولية التي كانت صورة مصغرّة شاحبة للامبراطورية الاسلامية ورأى إخفاق الثورة الكبرى في سنة ١٨٥٧ م ، و اطلع على أسباب هذا الاخفاق الذريع و انهزام مجموعة كبيرة ضخمة من أهل البلاد أمام حفنة من الأجانب الغرباء ، و رأى ما دفع المسلمين من قيمة هذه الثورة التي رسموا خطتها و تولوا كبرها ، و رأى هوان الشعب الكبير الذي كان صاحب الأمر و النهى في البلاد ، و شقاً الأسر و البيوتات الكبيرة ، و رأى سطوة

---

– Syed Ahmad Khan.

لمؤلفه بشير أحمد دار (Bashir Ahmad Dar M. A.)

Institute of Islamic Culture, LAHORE.

من مطبوعات مجمع الثقافة الاسلامية .

١ - هو السيد أحمد بن المنقى بن الهدادى الحسينى الدهاوى ، ولد في سنة ١٢٢٢ هـ ١٨١٧ م و قرأ المتومضات في العلوم العربية ، و عنى بالهندسة و الهندسة و الإقليدس عنابة خاصمة ، و تولى الوظائف و القضاء في الحكومة الانجليزية ، و ألف كتاباً ذات قيمة علمية في التاريخ ، و تولى تصحیح بعض الآثار العلمية و المؤلفات القديمة ، و أشرف على ضبطها و نشرها ، و كان من انصار الحكومة الانجليزية و من سعى في إخماد ثورة ١٨٥٧ م و توطيد الحكم الانجليزى وإزالة سوء التفاهم و الوحشة بين الشعب و الحكومة و كأنّه الحكومة على ذلك براتب شهري ، و أنشأ بمعاً علياً للترجمة و التأليف و النشر ، و أصدر مجلة و تهذيب الأخلاق ، و سافر إلى اوروبا سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ م) و ألف هناك كتاباً مشهوراً الخطبات الاحمدية في العرب و السيرة الحمدية في الرد على السير و ليام مير ، و الدفاع عن صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم ، و أنشأ سنة ١٢٧٥ هـ كلية اسلامية انجلزية ، و هي التي تسمى الآن جامعه علي الكره الاسلامية و توفي سنة ١٢١٥ هـ - ١٨٩٨ م .

الإنجليز تقوم على هذه الأنقاض ، و أبهة ملوكهم ، و طلائع مدنيةهم الخلابة ، و آياتها الباهرة ، و اتصل بالإنجليز اتصالاً وثيقاً عن طريق الوظيفة و الزماله ، و عن طريق الصداقه و التعارف ، فأعجب بذكائهم و كفافتهم و مدنيةهم ، و كان رجال مرهف الحس ، حاد الذهن ، قوى العاطفة عصياً ، سريع الانفعال و القبول ، مشاركاً في الثقافة الدينية غير راسخ فيها ، و لا متقن لها ، جريئاً في إبداء الرأي فتأثر بالإنجليز ، تأثر المغلوب بالغالب ، و الضعيف بالقوى ، و قلد حضارتهم ، و أساليب حياتهم شخصياً و صار يدعو إلى هذا التقىد في حماسة و قوة ، و يرى أن هذا التقليد و الظمر في مظهر سيد البلد و مجراه في الحياة و العادات تزيل الهيبة من قلوب المسلمين ، و تعالج « مركب النقص » فيهم ، و ترفع مكاناتهم في عيون الولاة ، و رجال الحكومة و تضعهم في مكان الزملاء ، الشركاء في الحياة ، الأقران في الاجتماع ، يدل على هذه الفكرة دلالة واضحة ما جاء في بعض مقالاته ، يقول :

« لابد أن يرغب المسلمون في قبول هذه الحضارة ، ( الغربية ) بكلها حتى لا تعود الأمم المتحضرة تزدرهم أعينها ، و يعتبروا من الشعوب المتحضرة المثقفة » ( ١ ) .

و قام السيد أحمد خان برحلة إنجلترا في أول أبريل ١٨٦٩

١ - مجلة « ذيب الأخلاق » ، مقالات السيد أحمد خان ج ٢ ص ١ .

فكان أول مسلم هندي سافر إلى الجزائر البريطانية ، في هذا العهد المبكر ، وقد كانت قناعة السويس في دور الإنشاء (١) و قد قابل صاحب فكتورتها و الأشرف عليها المهندس الفرنسي الشهير المؤسيو فردينان دى ليسپس (Ferdinand De Lesseps) الذي كان مسافراً في نفس السفينة .

و كان السيد أحمد خان موضع حفاوة نادرة في لندن ، و قد مكث فيها سبعة عشر شهراً ، كان فيها ضيفاً مبهجاً و زائراً كريماً ، و صديقاً عزيزاً ، في الأوساط الأنجلizية المحترمة ، و حضر المآدب الملكية الفخمة و الولائم ، الارستقراطية ، التي تمثل الحضارة الأوروبية في أورع مظاهرها ، و أخلاق الطبقة الحاكمة ، و طبقة الأشراف ، و نال الوسام الملكي و لقب الشرف ، و قابل الملكة ، و ولى العهد و الوزراء الكبار ، و اختير عضواً خرياً في جمعيات علمية ذات الشرف الكبير ، و حضر حفلة نادي المهندسين الكبار و اطلع على المشاريع و الخطط التقنية التي مرت بها البلاد في الزمن القريب ، و التي أحدثت ثورة و انقلاباً في الأوضاع ، و في مستوى البلاد ، و مكتبتها من بسط نفوذها و سيطرتها الفكرية و السياسية .

١ - وفي ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ (أشاء وجود السيد أحمد خان في لندن) فتحت الترعة لمروي المراكب و جرى ذلك باحتفال عظيم لم يكدر يسمع بهاته ما راجع السيد أحمد خان إلى بلاده إلا و المشروع العظيم قد تم و الرعنة مفتوحة للسفر .

رأى السيد أحمد خان فرنسا و إنجلترا و هما في أوج مدنتيهما ، و في ريعان الصناعة الحديثة ، و العلم الجديد ، و رأى المجتمع الانجليزي في عصر لم يتسرّب إليه الوهن ، و لم يعتره الضعف الذي أصيب به بعد الحرب الأولى ، و رأى الحيوية تتدفق منه ، و الطموح إلى غزو العالم و إخضاعه يملأ زمامه ، وقد شغل بمشاهدته جانب المشرق الوضاء عن مشاهدة جانب الضعيف الأسود ، و هو الجانب الخالق و الروحي ، و جانب الاستعمار الغاشم ، و الاجرام العالمي و الآثرة القومية ، و القسوة على غير الانجليزي – التي رأى مظاهرها في الهند – فأعجب بهذه الحضارة و المجتمع الذي يمثلها إيجاباً ملك عليه النفس و الفكر ، و ملء جميع جوانبه و جوانب تفكيره ، و رجع إلى البلاد في ٣ من أكتوبر سنة ١٨٧٠ م داعية متّحمساً إلى تقدير الحضارة الغربية ، و إصلاح المجتمع الاسلامي الهندي على أساس تقليل المجتمع الأوروبي و مبادئه و قيمه ، و تبني هذه الدعوة بكل إخلاص و بكل حماسة ، و وهب لها مواهبه كلها ، و أصبحت نظرته مادية ، بحثة تخضع للقوى الطبيعية ، و السنن الكونية – كما يفهمها – خضوعاً زائداً ، و يخضع لها عقیدته و يقول على أساسه القرآن تأويلاً يبلغ به حد التحريف و العبث بأصول العربية و اللغة ، و النحو و التواتر و الاجماع ، فصار يفسر القرآن

تفسير آ (١) يخرق فيه الاجماع ، و ينقض به الملة ، و يثير العجب و الإنكار في الأوصاط الدينية ، و العلمية ، و قد أصاب الدكتور محمد البهـي في نقد هذا الاتجاه إذ يقول في كتابه « الفـكـرـ الـاسـلـامـيـ الـحدـيثـ »

ـ فـرـكـدـ السـيـدـ أـحـمـدـ خـانـ كـانـتـ تـقـوـمـ عـلـىـ الـاـفـتـارـ بـالـعـلـمـ الطـبـيـعـيـ وـ الـخـضـارـةـ الـفـرـيـدةـ الـمـادـيـةـ ،ـ كـاـ يـفـتـنـ فـيـ عـصـرـنـاـ الـحـاضـرـ بـعـضـ الـمـفـكـرـيـنـ بـمـاـ يـسـمـيـ «ـ الـعـلـمـ »ـ (ـ Scـieـnـceـ)ـ وـ بـالـمـرـكـبـاتـ الـخـضـارـيـةـ الـتـيـ قـامـتـ عـلـيـهـ ،ـ وـ الـاـفـتـارـ بـالـعـلـمـ الطـبـيـعـيـ أـوـ بـالـطـبـيـعـةـ كـاـ يـقـالـ يـؤـدـيـ إـلـىـ خـفـفـةـ وـ زـنـ الـقـيـمـ الـرـوـحـيـةـ وـ الـمـشـالـيـةـ وـ هـيـ الـقـيـمـ الـتـيـ تـقـوـمـ عـلـيـهـاـ رـسـالـةـ الـأـدـيـانـ السـيـاـوـيـةـ الـتـيـ يـمـثـلـهـاـ الـاسـلـامـ أـوـضـحـ تـمـثـيلـ ،ـ وـ قـدـ يـصـيرـ الـاـفـتـارـ بـهـذـاـ الـعـلـمـ الطـبـيـعـيـ إـلـىـ إـنـكـارـ كـلـ قـيـمةـ أـخـرـىـ مـاـ لـاـ يـشـاهـدـ فـيـ الطـبـيـعـةـ ،ـ وـ يـدـرـكـ بـالـحـسـ الـأـنـسـانـيـ ،ـ وـ مـنـ هـنـاـ رـبـطـ السـيـدـ جـمـالـ الدـيـنـ الـأـفـغـانـيـ بـيـنـ إـلـحـادـ السـيـدـ أـحـمـدـ خـانـ وـ مـذـهـبـ الـدـهـرـيـ أـوـ الطـبـيـعـيـ مـعـ بـقـاءـ اـنـتسـابـهـ إـلـىـ الـاسـلـامـ ،ـ وـ نـعـتهـ بـالـإـلـحـادـ رـغـمـ مـاـ كـانـ يـسـكـرـرـهـ مـنـ القـوـلـ مـنـ أـنـهـ يـدـافـعـ عـنـ الـاسـلـامـ .ـ وـ أـنـهـ يـيـغـيـ أـنـ يـوـجـدـ طـرـيـقـاـ لـلـسـلـمـ الـمـعاـصـرـ يـوـفـقـ فـيـهـ بـيـنـ اـسـلاـمـهـ وـ تـقـلـهـ الـحـيـاةـ الـعـصـرـيـةـ الـتـيـ قـامـتـ عـلـىـ إـثـرـ نـهـضـةـ الـعـلـمـ الطـبـيـعـيـ .ـ (ـ ٢ـ)

١ - سـيـاهـ وـ تـفـسـيرـ الـقـرـآنـ وـ هـوـ الـهـدـىـ وـ الـفـرقـانـ ،ـ كـتـبـهـ فـيـ اـرـدـوـ فـيـ سـتـةـ مجلـدـاتـ ،ـ وـ قـدـ وـصـلـ فـيـهـ إـلـىـ تـفـسـيرـ سـوـرـةـ النـحلـ .ـ ٢ - صـ ١٥ـ - ١٦ـ

و قد كان هذا الاتجاه المادى المتطرف والاسراف فى تمجيد العقل و المبالغة في سلطانه و حدوده ، و إخضاع إرادة الله و قدرته و كتابه لقوانين الطبيعة و قوانين هذا العالم ، و الجرأة على التفسير و تأويل معانى القرآن ، تأويلاً جريئاً قد فتح باباً واسعاً للفتنة و التحرير و الالحاد في آيات الله و الفوضى في الدين و العقيدة التي انتشرت في العصر الأخير (١)

**جوائب الضعف في فكره السيد أحمد خان :** اتسمت خطة السيد أحمد خان التعليمية بسمتين تقاضرت بسببهما عن أن تكون الثورة المنشودة التي تشتد إليها حاجة العالم الإسلامي ، و عملاً ايجابياً بناءً يلامم وضع هذا المجتمع القائم على أساس العقيدة و الإيمان ، و الرسالة المحمدية، و يملأ الفراغ الهائل الواقع العالم في الإسلامي كله .

أولاً أنه لم يفكر في إخضاع هذا النظام التعليمي الذي أخذ شكله النهائي في البيئة الغربية ، لطبيعة هذا المجتمع الإسلامي الهندي الذي كان يريد تطبيقه فيه ، و حاجة و أوضاعه ، و لم يفكر

---

١ - قد يفهم القارئ من كتاب «الفكر الإسلامي الحديث» للدكتور محمد البهى (ص ١٧) أن المذهب القاديانى إنثى من الحركة التجددية الدينية التي قام بها السيد احمد خان وليس الأمر كذلك فان السيد احمد انتهى على مؤسس القاديانى ادعى النبوة و عارضه، إن قصارى الأمر أن الجو الذى هياه السيد احمد خان قد ساعد فى انتشار هذا المذهب و قول آراء صاحبه المتطرفة و قد كان خليفة القاديانى و عقده الأول نور الدين الحفصى من كبار المهاجرين بمدرسة السيد احمد خان في التفسير و التأويل .

في سبکه سبکاً جديداً اسلامياً هندياً ، و لم يفصله عن الحضارة الغربية و روحها المادية التي لا لزوم لها في بلد اسلامي شرقى بل انه استورد هذا النظام من الغرب بتفاصيله و خصائصه و روحه و طبيعته ، و مع الحضارة التي تكتنفه ، و ألح على كل الجزئين - المنهاج التعليمي ، و الحضارة الغربية - إلحاحاً شديداً بل شرط - في قانون الكلية - أن يكون العميد دائماً انجليزياً و أستاذان - على الأقل - من الانجليز ، و مدير الثانوية من الانجليز ، و يزداد في هذا العدد كلما اتسعت له ميزانية الكلية (١) .

و هكذا كان فلم يزل أربعة أو خمسة من الأساتذة الكبار من الانجليز يتولون التدريس في أقسام مختلفة و يشرفون عليها ، و كان لهم تأثير شديد عميق في نظام الكلية ، و أخلاق الطلبة حتى استطاعوا - بنفوذهم - أن يلعبوا دوراً مهماً في سياسة البلاد ، و قد كان عميد الكلية المستر ثيودرك - الدهاية الانجليزى - صاحب التوجيه الأول في السياسة الاسلامية الهندية، و قيادة الرأى ، و قد كان لهذا التوجيه عواقب و خيمة في السياسة ، و اتجاه المسلمين السياسي (٢) .

و هكذا اقترنت دعوة السيد أحمد خان التعليمية بالدعوة إلى الحضارة الغربية من غير لزوم و حاجة إلى ذلك ، خامت

١ - حياة جاويد (سيرة سيد احمد خان) لصديقه الاستاذ الطاف حسين حالى ص ٢٨٢

٢ - إقرأ فصل « الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند » في كتاب « المسلمين في الهند » للمؤلف .

حولها الشبهات و اكتنفتها أجواء من السخط والاستياء ، و أثارت انكاراً شديداً في الأوساط الدينية ، و رافقتها – منذ نشوءها – دعوة إلى مقاطعة هذه الحركة و الابتعاد عنها ، خلقت مشكلات كثيرة في سبيلها ، و عارضها علماء الدين الذين لم يكونوا يعارضون تدريس اللغة الانجليزية و العلوم المفيدة ، لما اقترن بها و رافقها من أول يومها ، من الخضوع للحضارة الغربية و قيمها ، و التأثير في الأخلاق و العقائد ، و بسبب سيطرة الأساتذة و رجال الادارة الانجليز و نفوذهم في هذه المؤسسة الوليدة ، و في عقول الشباب المسلمين – الذين يتسمون إلى أكرم الأسر الإسلامية و أذكاؤها – و في أخلاقهم . و قد نشأ – بفعل هذه المؤثرات و بتأثير الجو الغربي الذي يسود في هذا المعهد – جيل مثقف إسلامي الاسم غربي التفكير ، إنجليزي الطراز ، مضطرب العقيدة ، يعيش في عزلة عن المجتمع بعيداً عن أحاسيسه و مشاعره ، مختلفاً عنه في مستوى المعيشة ، و يخلق مشكلة جديدة في البيوتات و في المجتمع الإسلامي ، و لا ينسجم معه انسجاماً كلياً .

و السمة الثانية أنه تمسك في هذا النظام التعليمي بتعليم اللغة و الآداب فقط ، و لم يعن بتعليم الفنون و العلوم التطبيقية العملية العناية التي تستحقها مع أنها هي ثمرة العلم الجديد البانعة ، و سر قوة الأمم الغربية و سعادتها ، و هي التي يجب أن

تستفاد من الغرب و يحرص على دراستها و البراءة فيها ، بل أنه — ساحر الله — عارض في بعض الأحيان تعليم الصنائع و العلوم معارضة شديدة ، و كتب في هذا الموضوع مقالات شديدة اللهجة ، مريرة النقد ، آخرها المقال الذي نشرته مجلة « عليكروزت » ، (Aligarh Gazette) في عددها الصادر يوم ۱۹ فبراير سنة ۱۸۹۸ م يقول فيه : « إن الهند نظراً إلى حالتها الراهنة ليست في حاجة إلى تعليم الصنائع ، إن الأهم المقدم هو الثقافة الفكرية من المستوى الأعلى التي لم تتحقق أو لم تكمل بعد » ، وقد تخوف السيد أحمد خان بما كان يقرأ لكتاب الانجليز من الحث على دراسة العلوم الصناعية أن الانجليز يريدون وقف التعليم العالي أو تعليم الآداب الغربية ، فكان يحارب هذه الفكرة بكل قوته و بلاغته ، وقد ألقى محاضرة طويلة في حفلة مؤتمر التعليم الإسلامي الخامسة في هذا الموضوع ، و عارض أن يكون مشروع تعليم العلوم الصناعية على حساب تعليم الآداب الانجليزية و الدراسات الأدبية ، و قد عرض هذا المشروع مراراً و بحث فيه في لجان جامعة إلہ آباد ، و كان السيد أحمد خان من كبار خصومه و معارضيه (۱) .

و كانت نتيجة ذلك أن الجامعة الإسلامية اتجهت اتجاهها علمياً أدبياً محضاً ، و سيطرت عليه نزعـة التقليد و التطور ، و

۱ - حياة جاويد ص ۲۰۲ - ۳۰۳ .

نزعه التوسيع في الآداب و خرجت عدداً لا يستهان به من الخطباء  
و الأدباء و المدارسين و القضاة و المؤظفين الكبار ، ولم تخرج  
— بطبيعة الحال — رجالاً هيرزين و هبتكرين في علوم الهندسة  
و الميكانيكا ، و الطبيعة و الكيمياء و الصناعات المفيدة ، العلوم  
التي كان الشعب الاسلامي الهندي في قصر شديد فيها ، و كان  
ذلك من أسباب تخلفه و اقصاره على الوظائف الحكومية و  
المراكز الادارية المحدودة دائماً .

محضول هذه  
الحركة و انتاجها : و على كل فقد آتت هذه الدعوة التعليمية  
— التي تزعمها السيد أحمد خان بقوه و إخلاص — ثمراتها ، و  
ملأت الفراغ الثقافى و الاقتصادي الواقع في المجتمع الاسلامي  
الهندي ، بعد استقرار الحكم الانجليزى في الهند ، و عاج — إلى  
مدى محدود — القلق و اليأس المسيطرین على نفوسهم ، و تخرج  
في هذه الجامدة بعض خيرة الشباب و قادة الفكر ، و الزعماء  
السياسيين و أدباء كبار ، و شخصيات قوية قادت حركة  
« الخلافة » (١) و حركة التحرير في الهند و ساهمت في قيام دولة  
باكستان و إدارتها بعد ، و لكنها — على ما لها من فضل في  
نقاوته المسلمين الجديدة و في حالتهم الاقتصادية — لم تحقق

١ - هي حركة تأييد ~~الحكومة~~ العثمانية في قضاياها الإسلامية و معارضتها الخلفاء و كانت من اقوى حركات الهند الإسلامية السياسية .

الغرض المطلوب من الاستفادة بتجارب الغرب و تكييفها للجتماع الاسلامي و ظروفه ، ولم تملأ الفراغ الواقع الهائل ، فراغ الجيل الاسلامي الجديد ، الراسخ في عقيدته ، القوى في إيمانه ، العارف لرسالته و دوره في قيادة المدينة ، الواسع في ثقافته ، المرت في تفكيره ، الآخذ من الثقافة الجديدة محسنهما و ليابها ، المتتجنب عن شرورها و فشوها ، الأصيل في إنتاجه ، الجيل المرتقب الذي كان يتطلع إليه العالم الاسلامي - ولا يزال - في لھف شديد و صبر نافذ ، الجيل الذي كان يستطيع بتوفيق الله تعالى أن ينقذ العالم الاسلامي من الحيرة التي كان يتورط فيها ، و من الضعف الذي قد تسلط عليه ، و يمنحه مركزاً رئسياً في قيادة الأمم ، و توجيهه المدينة .

أكبر الاله آبادى

الشاعر الشاعر : وقد حارب هذه النزعة التطبيقية التقليدية - التي يقودها السيد أحمد خان - حرباً لا هوادة فيها معاصر مثقف ثقافة قديمة و جديدة ، يعتبر من أكبر شعراء عصره ، و هو السيد أكبر حسين (١) الاله آبادى ، المتلقب في شعره بـ « أكبر »

١ - هو السيد أكبر حسين بن تفضل حسين ، ولد في سنة ١٢٦٢ھ (١٨٤٦م) في مديرية الآباد و تلقى الثقافة الاسلامية و درس اللغة الانجليزية ، و اجتاز في سنة ١٢٨٤ھ امتحاناً في الحقوق ، و تولى القضاء ، و تقلل في الوظائف القضائية ، إلى أن أحيل إلى المعاش سنة ١٣٢٠ (١٩٠٣م) و لقبته الحكومة الانجليزية بلقب « خان بهادر » (يساوي بذلك في المجتمع المصرى) و ألقبه الشعب الهندى بلقب « اسان العصر » ، فغلب لقب -

و استخدم لنقدها و الانكار على هذا الجيل المثقف الجديد أسلوب الفكاهة الحادة ، و الأدب الخفيف الروح من أبلغ الأساليب الأدبية و اقواها ، و أجمتها في هذا العصر و جعل ذلك موضوع شعره طول حياته . ينتقد سياسة السيد أحمد خان - الذي يعترف بخلاصه - التعليمية و ما كان يدعو إليه من تقليد الغرب و تطبيق مناهج حياته ، و ينتقد الحياة السائدة في الكلية الإسلامية ، و ما ترسم به من تقليد أعمى للغرب ، و تساهل في العقيدة ، و رقة في الدين ، و تبذير في الأموال ، و تأنق في المظاهر ، و نفور عن الدين و رجاله ، و نهمامة للحياة ، و تهالك على الوظائف الرسمية ، و تخل عن التراث الشرقي القديم ، و عن تقاليد و مبادئه ، و ثورة عاليها ، و اندماج في المجتمع الغربي الغريب ، و سيطرة التفكير المادي الاقتصادي المغض ، و يصور — بشاعريته الساحرة و ريشته البارعة — الجيل الجديد ، تصويراً دقيقاً ، واضعف القسمات و الملامح .

---

— الشعب لقب الدولة الرسمي .

و كان — رغم ثقافته الحديثة العميقة — ديناً محافظاً سليم المقيدة ، قال في البداية التي توفى فيها ، و ما فاتني فريضة ، و لا غفلت عن حزبي في الليل ، و لا انصرف عن تلاوة القرآن طول عمري ، توفي رحمه الله سنة ١٣٤٠ م - ١٩٢١ م ، و من آثاره ثلاثة دواين شعرية ضخامة تلقنها الأوساط الأدبية و الإسلامية بالقبول والاستحسان ، و شهد له كبار الأدباء و الشعراء — منهم العلامة محمد إقبال — بالاجادة ، و إنه إمام في الشعر الفكاهي الاصلاحي في اردو .

وقد انتشر هذا الشعر في الأوساط الهندية على اختلاف طبقاتها واتجاهاتها انتشاراً عجيباً ، و تلقفه الأدباء والكتاب والشباب ورددوه ترديداً لم يعرف لشعر آخر منذ زمن طويل ، و على نجاح هذا الشعر و تأثيره في تحريك عاطفة الكراهة والازدراء و التخفيف من غلواء هذه النزعة التقليدية و قيمة هذه الحضارة ، لم يستطع بطبيعة الحال أن يحدث ثورة في المجتمع و يقف تيار التقليد الجارف ، و يؤسس مجتمعاً جديداً لأن الأدب المؤسس على التحكم و التنادر تأثيره و أجله محدودان ، و لكنه لم يخل من الفائدة ، و كان من عوامل الاتجاهات الأدبية الاجتماعية الجديدة في الهند (١) .

### الحركة الوطنية ومقاطعة

البضائع الأجنبية : كان هذا الاتجاه التقليدي في الهند — الذي قاده السيد أحمد خان في المسلمين و غذته الحكومة الانجليزية و نظام المعرف — في الطبقة المثقفة ، حرّاً في سيره لا يعوقه شئ ، و لا يخفى من حدته إلّا هدوء الطبيعة الهندية ، و اعتدالها في قبول كل جديد ، و تمسكها بالقديم وبالبساطة ، إلا أنه كان جديراً كل الجدارة بأن يكون الاتجاه العام السائد على البلاد على مر الأيام ، و يجعل من الهند الشرقية مجتمعاً غريباً

١ - للمؤلف مقالة مسيرة نشرت في مجلة الفتح المصرية ، مجلد العام التاسع ١٣٥٤ ، عدد ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، و مجلة « الضياء » الصادرة من لكتور الهند.

في تفكيكه و أساليب حياته ، وفي حضارته و إجتماعية ، و لكن حدثاً حال دون ذلك ، وغير اتجاه التاريخ .

حدث ما يضعف سلطان الحكومة الانجليزية — التي تزعزع هذه الحضارة في الهند — في النفوس و العقول ، و يثير الشك في قيمة هذه الحضارة و جدارتها للقيادة و استعدادها للانصاف و تحقيق العدالة الاجتماعية ، و ما يشير السخط الشديد و الكراهة العميقه لزعماً هذه الحضارة و مثيلها في الشرق ، و ما يحرك الشعور القوى بالشخصية و بالكرامة في أهل البلاد ، و يحمل على مقاطعة هذه الحكومة و كل ما يعزى إليها من حضارة و مظاهر و شعائر ، و كل ما يمون حركتها التجارية و الاقتصادية و يغذيها، ذلك نشوب الحرب العالمية الأولى ( سنة ١٩١٤ - ١٩١٨ م ) و وقوف الحكومة البريطانية — مع حلفائها — الموقف المعادى من الدولة العثمانية التي ينظر إليها المسلمين في الهند — كغيرهم في البلاد الإسلامية — كرمز للجد الاسلامى ، و مؤئل للخلافة ، و حامية الاسلام ، و لما تمت الهزيمة للاتراك في ١٩١٨ م ، و استولى الانجليز على الاستانة ، و توزع الحلفاء متناكلات الدولة العثمانية انفجر برkan الثورة في الهند ، و تعاون المسلمين و الهندوس في حركة الخلافة بشكل عام ، و كان غاندى — الزعيم الهندي الشهير — في جبهة القيادة مع زملائه محمد علي و شوكت على و أبي الكلام آزاد و اقرحوه سنة ١٩٢٠ م مقاطعة الحكومة

و الإضراب عن التعاون معها ، في إدارة الحكومة و جميع مجالات الحياة و مقاطعة البضائع الأجنبية ، فكان أمضى سلاح ملوي استخدموه حركة وطنية ، و انطلقت موجة عنيفة من السخط الشديد اكتسحت البلاد ، تحمل معها الدعوة إلى مقاطعة البضائع الأجنبية و التخلّي عن مظاهر الحضارة الأجنبية المستعمّرة ، و الظهور في المظاهر الوطني الشعبي ، و التمسك بالبساطة و التقشف في الحياة ، و الاقتصار على المنتجات الوطنية ، و كانت أعظم و أعنف حركة شاهدتها البلاد ، و كانت البلاد كلها — من أقصى حدودها إلى أقصى حدودها — شعلة نار ، و قد هزت سيطرة الحضارة الغربية في أعماق النفوس ، و اقتلت جذورها و عروقها من قلوب لا يحصيها كثرة إلا الله ، و أشعل الناس النيران في ملابسهم الغربية ، و القماش الوارد من الخارج — من إنجلترا طبعاً — في جموع حاشدة ، و حفلات كبيرة ، و رفض كبار الأغنياء و المثقفين ، و رجال الطبقة الارستقراطية ، عيشتهم الغربية الباذخة ، و تقدّموا و آثروا الحياة البسيطة الوطنية ، و حدث انقلاب عظيم في حياة ~~الكثيرين~~ ، من كبار المحامين و التجار و الموسرين ، فقد ملأوا السجون ، و تحملوا المشاق ، و بدا منهم من الإيثار ، و الزهد و القناعة ، و قوة العاطفة الدينية ، و الوطنية و المواساة للفقراء و المحافظة على الشعائر الدينية ، ما لم يكن يتوقع من أمثالهم قبل ظهور هذه الحركة .

و تلت هذه الحركة التي كان طابعها دينيا ، الحركة الوطنية الهندية العامة ، التي ترمى إلى تحرير البلاد ، و طرد الاستعمار ، و إقامة الحكم الذاتي ، و كانت — بخلاف كثير من الحركات السياسية في الشرق — حركة سياسية اجتماعية ذات فلسفة فكرية و اقتصادية، فلعلت دورها في إضعاف سلطان هذه الحضارة التي جاءت مع المستعمرين في تدعيم الشعور الوطني ، و ايشار كل ما هو أصيل و عريق في طبيعته الهندية و يعيشه الوطنية ، على المستورد الأجنبي، و لاشك أن هذه الحركات السياسية استطاعت أن تفعل — من مماربة مركب التقص ، و من إثارة الاعتداد بالكرامة والتخلص من الاستعمار الفكري و الثقافي — ما لا تستطيعه الفلسفات العلمية الكبيرة ، و ذلك شأن الحركات العملية الشعبية ، التي تتغلغل في أجزاء المجتمع و تسيطر على تفكيره دائمًا في كل بلد .

محمد إقبال و نقده

للحضارة الغربية : و قد بدأ الشباب الإسلامي الذي في فجر القرن العشرين يتبعون في الدراسات الغربية ، و يتعمقون فيها في الجامعات الهندية الراقية ، و قد زالت عنهم دهشة الفتح و هيبة الأنجلترا ، و بدأت بعثات ثقافية ترحل إلى أوروبا ، و يقيم عدد كبير منهم في عواصمها إقامة طويلة ، ينهلون من مناهلها الثقافية ، و يدرسون العلوم العصرية بدقة و إتقان ، تحت إشراف أساتذة كبار أحرار ، و يعرفون الحضارة الغربية عن كثب لا عن

كتب ، بل يخوضون فيها ، و يسبرون غورها ، و يعجمون عودها كأى شباب غربى مثقف من أبناء البلد ، و يدرسون الفلسفات و النظم و المدارس الفكرية . و يطلعون على دخائلاها و أسرارها ، و على الطبيعة الغربية المادية ، و النحوة القومية الأوربية ، و الآثره الشعبية في نفوس هذه الشعوب ، و يروان جوانب الضعف و بوادر الانفاس و طلائع الانهيار في المجتمع الغربى ، و يلاحظون العناصر الصالحة للبناء ، المسعدة للبشرية ، المفقودة في تركيب هذه الحضارة ، و في طبيعة زعمائها و حملة لوائهم ، و عناصر الفساد الهدامة المدمرة للدنيا ، المضلة للبشرية الموجودة في بعینها ، المركبة مع طينها من اليوم الأول ، فيثير كل ذلك في نفوسهم و عقولهم معانى و أحاسيس لم تكن ممكنتة إلا مع الإقامة الطويلة في أوربا ، و التعمق في فلسفاتها وأفكارها والدراسة المقارنة ، و إلا مع النظر العميق الجرى ، و التحرر من ربقة التلذيد ، و إلا مع الإيمان الذى لم يتجردوا عنه ، بل بقى جمرة في رماد مستعدة للالتئاب في كل وقت ، فيرجع كثير منهم يائساً من مستقبل الحضارة الغربية ثائراً عليها ، ناقداً نقداً جريئاً عميقاً متنزاً ، لاتطرف فيه و لانكار ل الواقع و لا مكابرة في الحقائق .

لقد كان في مقدمة هولاء الناقدين الشاعر بن محمد إقبال (١)

---

١ - ولد محمد إقبال بن نور محمد في سياتل كوت ، مدينة في مقاطعة بنجاح سنة ١٨٧٧ م ، انضم إلى كلية الحكومة في لاهور حيث حضر الامتحان الأخير في الفلسفة -

إن محمد إقبال قد لاحظ جوانب الضعف الأساسية في هذه المضارة وتركبها ، و الفساد الذي عجنت به طبيتها لا تتجاهلها

وأخذ درجة ما جستر (M. A.) في الفلسفة بامتياز ، وعين استاذًا للفلسفة وانجليزية في نفس الكلية ، وسافر إلى لندن سنة ١٩٠٥ حيث التحق بجامعة كبردج وأخذ شهادة عالية في الفلسفة وعلم الاقتصاد وسافر إلى ألمانيا وأخذ من جامعة ميونخ الدكتوراه في الفلسفة ، ثم رجع إلى لندن ، وحضر الامتحان النهائي في الحقوق وانتسب إلى مدرسة علم الاقتصاد وسياسة في لندن وتخصص في المادتين ، واقتصرت محاضرات في مدراس ، وأخرى في جامعة كبردج ، وقد اعتنى بهذه المحاضرات المستشرقون وعلماء الفلسفة والدين اعتماداً علىها ، وترجم أكثر كتبه إلى الانجليزية و الفرنسية و الألمانية و الطلبانية و الروسية ، و انتخب رئيساً للرابطة الاسلامية سنة ١٩٣٠ و انتخب عضواً في المجلس التشريعي في بنجاب ، و عرض في خطبته نصكرة باكستان لأول مرة ، و مثل ، مؤتمر المسلمين ، في مؤتمر المائدة المستديرة سنة ١٩٣١ - ١٩٣٢ ، و أقامت له جامعة أرسسطو ، جامعة روما ، جامعة السوربون ، و جامعة مجريط و المجمع الملكي في روما حفلات تكرييم ، توفي في ٢١ ابريل سنة ١٩٣٨ و شيعت جنازته في حشد كبير قلما شهد مثله ، ورثاه و أبناءه كبار الزعماء و قادة الفكر ، و رؤساء الحكومات . له سبعة دواوين في الفارسية ، و ثلاثة في اردو ، و محاضرات في الانجليزية .

المادي . و ثورة أصحابها على الديانات ، و القيم الخلقية و الروحية عند نهضتها ، و علل فساد القلب و الفكر الذي اتسمت به هذه الحضارة بكون روح هذه المدينة ملوثة غير عفيفة (١) ، و قد جردها تلوث الروح عن الضمير الظاهر ، و الفكر السامي و الذوق السليم ، و تسلط عليها — رغم المدينة الباذخة ، و الحكومات الواسعة ، و التجارة الراكحة — القلق الدائم ، لقد أظلم الجو في عواصمها بدخان المصانع المتتصاعد الكثيف ، ولكن يبيتها — على كثرة أنوارها — غير متهيأة لفتح جديد في الفكر و إشراق من عالم الغيب ، إنها حضارة شابة — بحداثة سنها . و الحيوية الكامنة فيها — و لكنها محتضرة تعاني سكرات الموت ، و إن لم تمت حتف أنها فستتحرر و تقتل نفسها بخجرها ، و لا غرابة في ذلك فان كل و كر يقوم على غصن ضعيف ليس له استقرار ، و لا يستغرب أن يرث تراهم الدينى و يدير كنائسها اليهود (٢) ، إن أساس هذه الحضارة ضعيف منهار ، و جدرانها من زجاج لا تحتمل صدمة (٣) ، ان الفكر المارد الذى أزاح الستار عن قوى الطبيعة أصبح بحموحة يهدد و كر الغربيين و مهدم ، إن العصر يتمثل عن عالم جديد ، و

١ - ضرب **كليم** ص ٦٩ .

٢ - ايضاً ص ١٤١ يشهد إلى نفوذهم الزائد و ثقة أوربا النصرانية بهم .

٣ - بال جبريل .

ان العالم القديم الذى حوله الغربيون مكان القمار ( الذى كان يقامر فيه بأمن العالم و كرامة الأمم ) يلفظ نفسه ، إن نور هذه الحضارة باهر ، و شعلة حياتها ملتهبة وهاجة ، ول لكن لم يكن في ربوعها من يمثل دور موسى فيتاقي الاهام ، و يتشرف بالكلام ، و لا من يمثل دور إبراهيم فيحطم الأصنام و يحول النار إلى برد و سلام (١) ، إن عقلها الجرىء يغير على ثروة الحب وينمو على حساب العاطفة (٢) ، إن عماليقها و ثوارها قد طغى عليهم التقليد فلا يخرجون - حتى في ابتكارهم و ثورتهم - عن الطريق المرسوم و الدائرة المحدودة ٠

٠ لقد تضخم العلم و تقدمت الصناعة في أوربا ، و لكنها بحر الظلمات ليست فيه عين الحياة ، إن أبنية مصارفها تفوق أبنية الكنائس في جمال البناء ، و حسن المظهر و النظافة ، إن تجاراتها قار يربح فيه واحد و يخسر ملايين ، إن هذا العلم و الحكمة و السياسة و الحكومة التي تتبعج به أوربا ليست إلا مظاهر جوفاء ليست وراءها حقيقة ، إن قادتها يعتصون دماء الشعوب و يلقون درس المساواة الإنسانية و العدالة الاجتماعية ، إن البطالة و العري و شرب الخمر و الفقر هي فتوح المدينة الأفرينجية ، إن الأمة التي لا نصيب لها في التوجيه السماوي و التنزيل الإلهي غاية

---

١ - يوم مشرق ، ص ٢٤٨ يعني أن أوربا لم تسكن أرض النبوة و الانبياء من الزمن القديم و لم يكن فيها اشراق روحي إلما ازدهرت فيها الماديات . (٢) أيضاً .

لوجها تسخين الماء و البخار ، إن المدينة التي تحكم فيها الآلات ، و تسيطر فيها الصناعة تموت فيها القلوب ، و يقتل فيها الحنان و الوفاء ، و المعانى الإنسانية الكريمة (١) ، و قد كان انتقاده و استعراضه للحضارة الغربية و أنسابها و مناهج تفكيرها في ماضياته العلمية التي ألقاها في مدارس و نشرت بعنوان « تجديد الفكر الدينى في الإسلام » (٢) ، أعمق وأكثر تركيزاً بطبيعة الحال ، لأن جو البحوث الفلسفية غير جو الشعر و الأدب ، فقال وهو يتحدث عن طبيعة الحضارة المادية في الغرب و الإنسان المعاصر الذى يمثلها و يتزعمها ، و عن الأزمة و المشكلات التي يعانيها :

« الرجل العصرى يحمله من فلسفات نقدية ، و تخصص على يحد نفسه في ورطة ، فذهبية الطبيعى قد جعل له سلطاناً على قوى الطبيعة ، لم يسبق إليه ، لكنه قد سلب إيمانه في مصيره هو (٣) ، » الإنسان العصرى و قد أعيش نشاطه العقلى ، كف عن توجيه روحه إلى الحياة الروحانية الكاملة ، أى إلى حياة روحية تغلغل في أعماق النفس ، و هو في حلبة الفكر في صراع صريح مع نفسه ، و هو في مضمار الحياة الاقتصادية و السياسية في

١ - بال جبريل .

٢ - Reconstruction of Islamic Thought in Islam.

٣ - المصدر المذكور ترجمة عباس محمود ص ٢٤ .

كفاح صريح مع غيره ، و هو يجد نفسه غير قادر على كبح أثره الجارفة ، و جبه للماج حباً طاغياً ، يقتل كل ما فيه من نضال سام شيئاً فشيئاً ، و لا يعود عليه منه إلا تعب الحياة ، و قد استغرق في « الواقع » أى في مصدر الحس الظاهر للعيان ، فأصبح مقطوع الصلات بأعماق وجوده ، تلك الأعماق التي لم يسرر غورها بعد . و أخف الأضرار التي أعقبت فلسفته المادية ، هي ذلك الشلل الذي اعتري نشاطه ، و الذي أدركه هكسلي (Huxley) و أعلن سخطه عليه (١) ،

و الاشتراكية الماجدة الحديثة – و لها كل ما للدين الجديد من حميمية و حرارة – لها نظرة أوسع أفقاً لكنها قد استمدت أساسها الفلسفى من المتطرفين من أصحاب مذهب هيجل (Hegel) و قد أعلنت العصبيات على ذات المصدر الذى كان يمكن أن يمدتها بالقوة و الهدف ، و هي « إذن ليست ، بقادرة على أن تشفي علل الإنسانية (٢) » ،

و محمد إقبال يصف هذا المجتمع – الأوروبي – بمجتمع يحركه تنافس وحشى و هذه الحضارة بحضاره فقدت وحدتها الروحية بما انطوت عليه من صراع بين القيم الدينية ، و القيم السياسية (٣) .

١ - المصدر السابق ص ٢١٥ - ٢١٦ .

٢ - ايضاً ص ٢١٦ - ٢١٧ . (٢) ايضاً ص ٢١٧ .

و ينظر محمد إقبال — ككل مطلع خبير — إلى الرأسمالية و الشيوعية كفرعين من دودة المادة و أسرتين للحضارة الغربية ، إحداهما شرقية ، و الأخرى غربية ، تلتقيان على النسب المادي ، و التفكير المادي ، و النظر المحدود إلى الإنسان ، و يقول بسان السيد جمال الدين الأفغاني — في رحلة فكرية تخيلها و اجتمع به فيها — « إن الغربيين فقدوا القيم الروحية و المخالق الغيبية ، و ذهبوا يبحثون عن الروح في « المعدة » ، إن الروح ليست قوتها و حياتها من الجسم و لكن الشيوعية لا شأن لها إلا « بالمعدة و البطن » ، و ديانة « ماركس » مؤسسة على مساواة البطون ، إن الأخوة الإنسانية لا تقوم على وحدة الأجسام و البطون ، إنما تقوم على محبة القلوب ، و ألفة النفوس (١) ، « إن الملكية و الشيوعية تلتقيان على الشره و النهامة ، و القلق و السآمة ، و الجهل بالله و الخداع الإنسانية ، الحياة عند الشيوعية « خروج » ، و عند الملكية « خراج » ، و الإنسان البائس بين هذين الحجرين قاروة زجاج ، إن الشيوعية تقضي على العلم و الدين و الفن ، و الملكية تنزع الروح من أجسام الأحياء و تسلب القوت من أيدي العاملين والفقراء ، لقد رأيت كلتيهما غارقين في المادة ، جسمهما قوى ناضر ، و قلبهما مظلم فاجر (٢) ».

١ - جاود ناده ، ما خرذ من « روايحة إقبال » للمؤلف ، ص ١١٣ - ١١٤

٢ - ابضاً .

## الحضارة الغربية

والاقطان الإسلامية : و يعتقد محمد إقبال أن هذه الحضارة غير قادرة على إسعاد البلاد الإسلامية ، و إعادة الحياة إليها ، يقول :

« إن الحضارة التي قد أشرفـت على الموت لا تستطيع أن تحيـي غيرها (١) ، و قد جزـت من إحسـان هذه البلاد الشرقـية إـساءـةـ من جـانـبـها ، و كـافـاتـ خـيرـها بـشـرـ ، فـقدـ منـحـهاـ الشـامـ نـيـأـ (٢) رسـالـتـهـ العـفـةـ وـ المـواـسـاةـ وـ الرـحـمـةـ ، وـ مـقـاـبـلـةـ الشـرـ بـالـخـيـرـ ، وـ الـظـلـمـ بـالـعـفـوـ ، وـ قـدـ منـحـتـهـ أـورـباـ — بـدـورـهـاـ وـ مـقـاـبـلـ كلـ ذـلـكـ — الخـرـ وـ القـهـارـ ، وـ الفـجـورـ وـ هـجـومـ المؤـسـسـاتـ (٣) »

نـقـدـهـ لـدـعـاهـ التـجـدـيدـ

في الشـرقـ : إـنـهـ يـسيـئـ الـظـنـ بـدـعـاهـ التـجـدـيدـ — وـ بـالـأـصـحـ التـغـرـيبـ — في الأـقـطـانـ إـلـيـهـ الـمـسـافـةـ ، وـ يـخـشـيـ أنـ تـكـونـ الدـعـوـةـ إـلـى التـجـدـيدـ حـيـلـةـ وـ سـتـارـاـ لـتـقـلـيدـ الـأـفـرـاجـ (٤) ، يـقـولـ : « إـنـيـ يـائـسـ مـنـ زـعـمـاـ التـجـدـيدـ فـيـ الشـرـقـ ، فـقـدـ حـضـرـوـاـ فـيـ نـادـيـ الشـرـقـ بـأـكـوـابـ فـارـغـةـ ، وـ بـضـاعـةـ مـرـجـاـةـ فـيـ الـعـلـمـ وـ الـفـكـرـ »

« إنـ الـبـحـثـ عـنـ « بـرـقـ جـدـيدـ » فـيـ هـذـاـ السـحـابـ عـبـثـ وـ إـضـاعـةـ وـقـتـ ، فـقـدـ تـجـرـدـ هـذـاـ السـحـابـ الجـهـامـ عـنـ بـرـقـ الـقـدـيمـ ،

١ - ضـربـ كـلـيمـ صـ ٦٨ـ .

٢ - يـشـيرـ إـلـىـ سـيـدـنـاـ عـيـسـىـ هـاـيـهـ السـلامـ .

٤ - ضـربـ كـلـيمـ صـ ١٥٠ـ .

فضلاً عن البرق الجديد (١) .

إنه يعارض التقليد الأعمى في أمة من الأمم ، ولا سيما الأمة التي خلقت لقيادة الأمم و إحداث الثورة في العالم ، ويقول : « إن الذي يأتي بالجديد في هذا العالم الذي يتجدد دائماً هو نقطـة الدائرة التي يطوف حولها الزمان ، لا تعطل شخصيتك - أيـها المسلم - بالتقليد الأعمى ، و احتفظ بـكرامتـك فـانـها الجوهر الفـرد ، إن التجـديد ( بـمعنى التـغـيرـ ) لا يـلـيق إـلاـ بأـمـة لا تـفـكـر إـلاـ فـي الدـعـة و التـرف ( ٢ ) . »

إنه يـعـاتـب الأـمـم الشـرـقـية الـاسـلـامـيـة التي كانت دورـها دورـ التـوـجـيه و القـيـادـة ، و أـصـحـبـت تمـثـيل دورـ التـلمـذـة الـخـاشـعـة ، و وـالـتقـلـيدـ الـذـلـيل ، يـقـول - وـ كـانـه يـشـير إـلـىـ الشـعـبـ الـتـرـكـيـ الـاسـلـامـيـ وـ مـنـ كـانـ عـلـىـ شـاـكـلـهـ - إـنـ أوـلـئـكـ الـذـينـ كـانـواـ يـسـطـيـعـونـ أـنـ يـقـودـواـ عـصـرـهـمـ أـصـبـحـواـ سـخـافـتـهـمـ يـقـلـدـونـهـ وـ يـمـشـونـ وـرـاءـهـ ( ٣ ) . »

إـيمـانـهـ بـفضلـ الـحـضـارـةـ الـاسـلـامـيـةـ وـ حـيـوـيـتـهـ : إـنـهـ شـدـيدـ الـإـيمـانـ بـمـاـ تـضـمـرـهـ الـحـضـارـةـ الـاسـلـامـيـةـ وـ الشـرـيعـةـ الـاسـلـامـيـةـ مـنـ حـيـوـيـةـ خـالـدـةـ وـ قـوـةـ دـافـقـةـ ،

١ - ضـربـ كـلـيمـ صـ ٦٩ـ ، يـشـيرـ إـلـىـ أـنـ هـوـلـاـ المـصـلـحـينـ ثـقـافـتـهـمـ الـقـدـيمـةـ وـ ثـقـافـتـهـمـ الـجـديـدةـ ضـعـيفـتـانـ مـحـدـودـتـانـ ، لـيـسـ لـهـمـ فـيـ إـحـدـاهـمـ كـعبـ عـالـ وـ لـابـاعـ طـوـيلـ

٢ - ضـربـ كـلـيمـ ١٧٠ـ .

و إمكانيات واسعة لتكوين عالم جديد ، و تأسيس مجتمع جديد، يقول في خطبته التي ألقاها رئيساً لمؤتمر الأحزاب الإسلامية في دہلی سنة ١٩٣٣ م مخاطباً المسلمين .

إن الدين الذي تحملون رأيته يقرر قيمة الفرد ، و يريده تربية تجعله يبذل كل ما عنده في سبيل الله ، و في صالح عباده إن مضمرات هذا الدين القيم و كواننه لم تنته بعد ، إن في استطاعته أن يوجد عالماً جديداً يجرب فيه الفقراء الأغنياء لا يقوم فيه المجتمع البشري على مساواة البطون ، بل يقوم على مساواة الأرواح \*

المعلم الإسلامي الجديد : و لذلك كان يعتقد — بكل إخلاص و حماسة — أنه لابد من وجود رقعة حرفة تقوم فيها عملية الحياة الإسلامية ، بجميع نواحيها و شعوبها ، و تتجلى فيها عبقرية الشريعة الإسلامية ، و عدل النظام الإسلامي ، و تستطيع فيها الطريقة الإسلامية في الحياة أن تعبّر عن نفسها تعبيراً عملياً و ثقافياً ، لما كانت الهند — كما قال في خطبة رئاسته للعصبة الإسلامية سنة ١٩٣٠ م — قطرًا تسكن فيه جالية تكون أكبر مجموعة إسلامية في بلد واحد ، كانت أحق بتقديم هذه التجربة و بتكون هذا المركز الإسلامي و بتغيير أدق المعلم الذي يثبت فيه الإسلام صلاحته لتكوين المجتمع الصالح . و تنظيم الحياة الاجتماعية ، و حل المشكلات الاقتصادية ، و توجيه المدنية توجيهاً صالحاً ،

و التطبيق بين العقيدة و العمل و الروح و المادة ، و الفرد و الجماعة تطبيقاً يثير العجب و الإعجاب ، و يحمل قادة الأقطار الإسلامية على التقليد و يحمل المفكرين في العالم على التفكير من أسلوب جديد .

كان هذا النظر بعيد ، و هذا الطموح الذي لم يعرف نظيره في العالم الإسلامي ، أساس مملكة باكستان ، و قد تحقق هذا الحلم بعيد في سنة ١٩٤٧ م و قامت دولة باكستان ، وقد اعترف الزعيم محمد علي جناح بهذا الأساس الفكري الذي قرره محمد إقبال و تعنى به . فقال في أول خطبة خطبها بعد قيام باكستان :

« لقد أصبحت باكستان التي كافحة في سبيلها عشر سنين كواحدة حقيقة ملموسة ، ولكن يجب أن لا ننسى أن قيام مملكتنا الحرة ليست غاية ، إنما هي وسيلة ، إن الغاية و الهدف النهائي قيام مملكة نعيش فيها أحراراً ، و تقدم بها واق طبيعتنا الخاصة و ثقافتنا . و تنفذ فيها مادئ العدالة الاجتماعية في الإسلام بحرية » و لكن هذه العملية — التي لا تساويها عملية في الضخامة و الدقة والخطورة و بعد النتائج — لا تقوم و لا تتحقق إلا على أيدي القادة الذين يؤمنون بخلود الشريعة الإسلامية وفضل الحضارة الإسلامية إيماناً لا يشوبه شك ، و يخلصون لها إخلاصاً لا يشوبه نفاق ، و يتحررمن ربقة الحضارة الغربية ، و الإيمان بقيمها و أسسها ،

و من رق الثقافة الأجنبية تحررآ كاملا ، و يجتمعون – على الأقل – بين الإيمان الراسخ و الشجاعة الخلقية ، و المقدرة على استخدام الوسائل و الطاقات التي أحدثتها العلوم الحديثة ، و تكسيفها للمجتمع الإسلامي الحر .

العملية في الامتحان : و لكن هذه العملية – التي قفزت إلى الوجود لأسباب تاريخية و سياسية و فاجأت العالم المعاصر – لم تجد فرصة تهيئة هذا الجيل و إعداد هذه القيادة ، و قد بمحز نظام المعارف الغربي السائد في الأقطار الشرقية ، و بمحزت الجامعات الغربية التي تأق فيها هولاً السادة ثقافتهم عن أن تتبع أحسن منهم في عامة الأحوال ، و عن أن تتبع غير هذا الطراز من التفكير ، و غير هذا الأسلوب من الحياة . و الشجرة لا تلزم على ثمرتها الطبيعة ، و لا يرجى تغيير هذا الوضع ، و وجود القيادة التي تحقق هذه العملية حتى يغير نظام المعارف و نظام التثقيف و التربية في هذه البلاد ، و يمنع الإسلام و المجتمع الإسلامي حق تخريج و اختيار من يتولى قيادته و يقرر مصيره مطابقاً لعقيدته و فطرته ، و آماله و حاجاته ، و هو حق طبعي لكل شعب و لكل مجتمع ، لا يجوز جحوده في أى عصر و في أى مكان .  
أهمية الدور الذي تمثله

مصر في العالم الإسلامي : وكانت مصر – منذ عهد الخديو محمد علي باشا و جلاء الفرنسيين – في ١٧٩٩ م المجال الثالث الرئيسي

الذى ظهر فيه صراع الشرق و الغرب ، الفكري و الثقافى و الحضارى و الاجتماعى في أبرز مظاهره و أقوالها ، فقد بذرت الحملة الفرنسية و بقاها إدارتها و قيادتها للأمور مدة (١) – قصيرة بحسب الشهور ، طويلة بحسب التأثير و النفوذ – بذوراً عميقة في التربة المصرية ، و العقلية الإسلامية العربية ، و احتك الشرق بالغرب في أرض مصر احتكاكاً مباشراً ، و وصل – بين الشرق و الغرب – بعثات علمية و ثقافية عن بإرسالها الخديو للاستفادة من الغرب و نظمه و علومه ، و للتقدم بمصر في مضمار العلم و الصناعة و الفنون و الإدارة ، حملت إلى مصر ثمرات الثقافة الغربية ، ثم انشئت ترعة السويس – في عهد إسماعيل – تصل بين البحر الأحمر و البحر الأبيض المتوسط فتحدث انقلاباً في تاريخ السياسة و التجارة العالمية ، و ترفع الفجوة بين العالمين الغربي و الشرقي و تسهل مهمة اللقاء و الالقاء .

و كانت مصر بخصائصها الكثيرة التي لا يشار إليها فيها أحد حديرة بأن تكون متلقى يلتقي فيه ما فاقت فيه أوروبا – بجهدها و كفاحها – من العلوم التطبيقية ، و الوسائل الحديثة ، و ما خص الله به الشرق الإسلامي من علم و يقين و أنس صالحنة خالدة للحياة السعيدة ، و محركات و دوافع قوية نبيلة لا تتباق إلا من العقيدة القوية و القلب الفائز بالإيمان و الحب ، و كانت

---

١ - و هي مدة سبعة أشهر ٢٤ يوليو ١٧٩٨ م - ١٠ فبراير ١٧٩٩ م .

مصر من أوفر البلاد نصيحاً من هذه الثروة المكرمة و من أقدرها على توسيعها و توزيعها بفضل غناها في اللغة العربية و العلوم الدينية ، و وسائل الطبع و النشر ، و وجود الأزهر أكبر مركز ثقافي ديني في العالم الإسلامي ، و بفضل مرونة العقل المصري . و قدرته القديمة على الأخذ والإعطاء ، والتأثير و التأثير ، وكانت جديرة بأن تضرب مثلاً صالحاً للعالم الإسلامي وللإقليم الشرقي للتبادل الحر الشريف المؤسس على الشعور بالكرامة و الثقة بالشخصية ، و التمسك بالعقيدة في جانب و روح السماحة و الانصاف ، و تقدير العلم و الحكمة ، و الترحيب بالصالح النافع في جانب آخر ، التبادل الذي لا يخسر فيه الميزان ولا يطفف فيه السكيل .

النهاية إلى قناة جديدة : لقد كان لمصر أن تنشئ قناة أفضل من قناة السويس ألف مرة ، و أعود منها على الشعوب الإنسانية بالخير و السعادة ، و أعمق منها تأثيراً في اتجاه العالم و مصير الشعوب و الأمم ، و أوسع تأثيراً في التاريخ الإنساني ، هي قناة التعارف الصحيح المتداول المتوازن بين الشرق و الغرب ، قناة تصل الشرق المتختلف في العلوم الطبيعية و الصناعات المفيدة بالغرب الذي قد بلغ الذروة فيها ، و تصل الغرب الحائز المت chùم بقوته المادية ، المفلس في الروح و الأخلاق ، اليائس المتشائم ، السالك في سبيل الانتحار بمنابع الرضا و المدود و الأمان العاطفي ،

و النّفحة المتبادلة و الأمل القوى في مستقبل الانسان ، الكامنة في رسائلات الشرق الدينية و الروحية التي يمثلها الاسلام في شكلها الكامل النهائي . و تصل وسائل الغرب الهائلة الجباره المكدرسة التي لا تعرف غاية بغايات الشرق النبيلة الكريمة الرحيمة التي لا تملك وسيلة ، تصل الغرب الذي يستطيع و لا يريد ، بالشرق الذي يريد و لا يستطيع ، فيفيض كل واحد منها على الآخر أفضل ما عنده ، و يتعاونان — تعاون الشقيقين — في إسعاد البشرية ، و تهذيب المدينة ، هذه القناة الثقافية العقلية التي تعتبر — لو تحققت و ظهرت إلى الوجود — فتحاً جديداً في العالم ، و مأثرة تاريخية تشغّل أعظم مكان مشرف في التاريخ الحديث ، و تكسب لمصر الرّعامة الخالدة ، و أشرف مركز تطمح إليه القلوب والأبصار .

لقد كانت مصر جديرة باحتلال هذا المركز الخطير ، و تمثيل هذا الدور العظيم ، لو تهيأ لها — في أول عهدها بالحضارة الغربية و الثقافة الأجنبية — إيمان قوى بخلود الرسالة الدينية التي أكرّمها الله بها بالاسلام ، و شدة حاجة الإنسانية إليها ، و العزم الصميم على الاخلاص لها ، و الاتصاف بصفاتها ، و التفاني في سبيلها ، و المضم الصحيح القوى للعلوم العصرية ، و تقوية نفسها بها و إخضاعها للدور الذي يجب أن تمثله في العالم المعاصر ، و تهيأت لها شخصيات مؤجّلة قوية .

## موقف مصر التقليدي

الضعف : و لكن الظروف والأوضاع السياسية والتعلمية قد صرفت مصر - زعيمة العالم العربي الإسلامي - عن تمثيل هذا الدور العظيم ، دور القيادة والتوجيه ، و دور التأثير في العالم الغربي ، و جعلتها تقف من العالم الغربي موقف التلميذ ، و موقف المقلد المقتبس ، و جعلت مهمة هذه القناة الثقافية الفكرية مقصورة على الاستيراد فقط ، استيراداً لا تتجل في شخصية مصر الإسلامية العربية و العقلية الناضجة الناقدة .

من أهم هذه الأوضاع التي اتجهت بها مصر هذا الاتجاه الضعيف الذي أسمى به مصر إلى نفسها ، و إلى العالم العربي الذي تولت زعامته و قيادته ، الوضع السياسي القائم الذي كانت تعيش فيه مصر في القرن التاسع عشر ، و يشاركها فيه العالم الإسلامي بصفة عامة ، عصر النفوذ الأجنبي و الاحتلال البريطاني الاحتلال المباشر ، أو غير المباشر ، فقد شغل هذا الوضع - الغير الطبيعي - تفكير قادة الفكر في العالم الإسلامي ، و استنفد جهودهم و مواهبهم ، و لم يدع لهم مجالاً في التفكير و لا سعة في الوقت ، و لا فضلاً في الذكاء .

## السيد جمال الدين الأفغاني

و انقطاعه إلى السياسة : كان السيد جمال الدين الأفغاني ، أنسع عقلية و أقوى شخصية عرفت الغرب دراسة و سياحة ،

و ثقافة و سياسة ، و أقدر نوابع الشرق على مواجهة حضارة الغرب و فلسفاته المادية و نقدها ، و صيانة الشرق من سيطرتها و سلطانها الفكري ، و منعه من الانحراف الذي تفتقده شخصيته و رسالته ، و كتابه الصغير الذي وضعه في الرد على الدهريين ، يدل على سعة دراسته و عمق تفكيره و قوة شخصيته ، و لم يكن الدكتور محمد إقبال مبالغًا إذ قال :

« إن جمال الدين كان إنسانا له نظرة عميقة في تاريخ الفكر الإسلامي ، و الحياة الإسلامية ، لذلك لو ركز قوته الذهنية في خدمة الإسلام كنظام للتوجيه الإنساني والحياة الاعتقادية للإنسان ، لوجد العالم الإسلامي اليوم على أساس أقوى بكثير (١) ،

ولكن وضع العالم الإسلامي بصفة عامة و وضع مصر — التي قضى فيها جمال الدين أفضل أيام حياته و أكثرها انتاجا، و اتخذها مركز نشاطه العقلي — و الطبيعة التي خلقه الله عليها من الذهن الوقاد و الذكاء الحاد ، و الحمية الإسلامية الشائرة ، و الأنفة الأفعانية المتهيجة . كل ذلك منع جمال الدين عن التفكير في غير إنهاض البلاد الإسلامية سياسة و تنظيمها ، و إعادة الكرامة و القوة إليها ، و الربط بين أجزائها ، و إقصاء النفوذ الأجنبي عامه و النفوذ البريطاني — الذي اكتوى بناره في بلاده و في الهند وإيران و في مصر — خاصة ، وطبع نشاطه وكفاحه

بطابع السياسة ، و أصاب الدكتور محمد البهـي إذا قال : « ( كان جمال الدين ) ينتزع الأمثلة من تاريخ الشعوب و من تاريخ الأئمة الإسلامية نفسها ، كما ينتزع الشواهد المحسوسة التي تفزع المسلمين من السياسة الاستعمارية في البلاد الإسلامية ( في الهند و مصر على الخصوص ) هذه الأمثلة التي كان ينتزعها من شواهد الحياة الإسلامية ، و مظاهرها في وقته ، مع بيان مدى ألا عيب السلطات الأجنبية و دسائسها ، و هدفها الذي نهـايتها بسط النفوذ الأجنبي لصالح الجماعة الأوروبية و حدها على رقعة العالم الإسلامي .

هـذا الإـحتـكـاكـ المـباـشـرـ نفسهـ هوـ الـذـىـ ظـهـرـ حـرـكـةـ جـمـالـ الدـينـ الـأـفـغـانـىـ فـيـ صـورـةـ حـرـكـةـ سـيـاسـيـةـ ، وـ هـوـ نـفـسـهـ السـبـبـ فـيـ أـنـ يـلـقـ بـمـركـزـ الثـقلـ فـيـ نـشـاطـهـ عـلـىـ «ـ الحـرـيـةـ السـيـاسـيـةـ »ـ فـيـ الشـرـقـ الـإـسـلامـىـ ،ـ لـلـوـاطـنـىـنـ جـمـيعـاـ مـسـلـمـىـنـ وـ مـسـيـحـىـنـ ( ١ )ـ .

وـ خـيرـ مـنـ يـحقـ لـهـ التـعبـيرـ عـنـ نـفـسـيـةـ السـيـدـ جـمـالـ الدـينـ وـ تـأـخـيـصـ دـعـوـتـهـ هـوـ تـلـيـيـدـهـ الشـيـخـ مـحـمـدـ عـبـدـهـ ،ـ وـ هـوـ يـقـولـ :

«ـ أـمـاـ مـقـصـدـهـ السـيـاسـيـ الذـىـ قـدـ وـجـهـ إـلـيـهـ كـلـ أـفـكـارـهـ وـ أـخـذـ عـلـىـ نـفـسـهـ السـعـىـ إـلـيـهـ مـدـةـ حـيـاتـهـ –ـ وـ كـلـ مـاـ أـصـابـهـ مـنـ الـبـلـاءـ أـصـابـهـ فـيـ سـبـيلـهـ –ـ فـوـ إـنـهـاـضـ دـوـلـةـ إـسـلـامـيـةـ مـنـ ضـعـفـهـاـ وـ تـنبـيـهـهـ لـلـقـيـامـ عـلـىـ شـيـونـهـاـ حـتـىـ تـلـحـقـ الـأـمـةـ بـالـأـمـمـ العـزـيـزـةـ ،ـ وـ الـدـوـلـ بـالـدـوـلـ

١ـ الفـكـرـ الـإـسـلامـيـ الـمـدـبـثـ صـ ٥ـ

القوية ، فيعود للإسلام شأنه ، و للدين الحنفي مجده ، و يدخل  
في هذا تقليص ظل بريطانيا في الأقطار الشرقية (١) ،

### فضل حركة السيد

جمال الدين و مدرسته : لم تكن هذه الغاية الجسيمة والأوضاع  
السياسية الجاثمة على الشرق لتدع لمثل السيد جمال الدين الأفغاني  
— في قوة عاطفته و حساسته — حقلا آخر للنشاط و الانتاج ،  
و تدع يعمل عملاً ايجابياً بناءً في المجتمع الإسلامي ، و يقوم  
بدراسة عميقة تحاليلية للحضارة الغربية ، و ما يحسن اقتباسه منها  
و ما لا يحسن ، و بناءً فكر إسلامي جديد يسائل الزمان و يتغاب  
على نزعة تقليد الغرب .

ولكن دوره عظيم جداً في رفع قيمة الدين و التمسك  
بالإسلام ، و الاعتماد على القرآن في عيون النشر الجديد ، و في  
إعادة الثقة بصلاحية الإسلام لكل زمان و مكان ، إلى نفوس  
الشباب المثقف ، يستحق به أن يعتبر أبو الجيل الإسلامي الجديد ،  
و عظمته في أنه حال بين الطبقة المثقفة الذكية في مصر و غيرها ،  
و بين الأخذ والثورة على الدين ، و آخر أو بطاء سير النزعة  
العلمانية تغزو عقول المثقفين ، و تكون الأساس الفكري و  
الميثاق القومي للحكومات الإسلامية ، أخرها مدة نصف قرن ،  
و هي مدة لا يستهان بها في سير الحوادث و تيارها الجارف ، و

١ - زعماء الاصلاح في العصر الحديث للدكتور أحمد أمين ص ١٠٦

لو لا هو و تلميذه النابغة — الشيخ محمد عبده — اللذان أصبحا جبهة و الانتصار لهما شعار المثقفين الاحرار في الشرق الاوسط، كان الإلحاد و التبرؤ من الدين أسرع و أوسع في هذه الطبقة التي لم تخضع قط فكريياً لعلماء الدين على النط القديم ، و قد صدق المستشرق الالماني الكبير كارل بروكلاند إذ قال : « مهما يكن من أمر فقد كان الاسلام — ولا يزال — هو المهيمن على الحياة الدينية في مصر ، وإنما يرجع الفضل في ذلك — في محل الأول — إلى تأثير جمال الدين الأفغاني (١)، حركة الاخوان »

و الخسارة بفقدانها : و لكن الحاجة إلى مواجهة حضارة الغرب وجهاً لوجه ، و نقدها النقد الجريئ الأصيل ، و الظهور أمام الغرب في مظاهر الداعي المهاجم كان يتطلب دراسة أعمق ، وجوداً أكثر ترابطاً و أكثر تركيزاً ، و معرفة بطبيعة الحضارة الغربية و تركيبها أدق ، و حماسة في الدعوة إلى الاسلام و نظمها و مناهجها أشد ، و تطلب موقفاً غير موقف الزعيم السياسي الذي وقفه جمال الدين ، و موقف المحامي المدافع عن الشريعة الاسلامية الذي وقفه الشيخ محمد عبده ، على إخلاصهما و عظمتهما شخصيتهم ، و ضخامة الفائدة التي حصلت على أيديهما و أيدي تلاميذهما الفضلاء .

و قد كان في حركة الاخوان المسلمين ، كبرى حركات

١ - جمال الدين الأفغاني الاستاذ محمود أبو رية ص ١٢ .

الشرق الأوسط الدينية والسياسية ، لو قدر لها أن تسير مسيرها الطبيعي و تؤثر تأثيرها المطلوب و التف حولها الباحثون النوابغ و المفكرون المسلمين و رجال الاختصاص الفنى ، والدراسات الواسعة العميقه التي قد بدت طلائعها (١) أمل في أن يتم مابدأه السيد جمال الدين الأفغاني و محمد عبده من عمل تحرير الفكر الاسلامي الشرقي من جمود القديم و من تقلييد الغرب السخيف ، و تملأ الفراغ الفكري في الشرق و تنجح في تأسيس المجتمع الاسلامي القوى المستقل في شخصيته و في تفكيره و في وطنه ، ولكن طغيان الجانب السياسي العملى على رجال هذه الدعوة في جهة و محاربة القوات المتوجهة إلى « العلماوية » و المادية ها في جهة أخرى قد حرمت العالم العربي – و العالم الاسلامي بدوره – ثمرات هذه الحركة الواسعة القوية التي كانت أقوى انتفاضة دينية و ثورة إسلامية في العصر الحاضر ، و كان ذلك رزاً و خسارة للعالم الاسلامي لا تعوض .

المتخرجون في أوربا طلائع الفكر الغربي في العالم العربي : بدأ صفوه الأذكياء و خيرة الشباب يدرسون العلوم العصرية في مصر ثم يؤمنون عواصم الغرب و مراكز الثقافة العصرية الكبرى في أوربا للتوسيع في الدراسات

٢ - في كتاب الاستاذ الشهيد عبد القادر عوده و سيد قطب و محمد الغزالى و سعيد رمضان و أضرابهم .

و التعمق فيها ، و يخوضون هناك في لجة الحضارة الغربية و في الأوساط العلمية التي اعتادت البحث العميق الدقيق ، و اعتادت الحرية الفكرية و الشجاعة الأدبية و عافت التقليد و الأخذ بشئ على عواهنه ، فكان من المتوقع و من المعتقول جداً أن يوجد في هولاء الشباب الشرقيين الذين نشأوا في مصر البلد الإسلامي و قرأوا القرآن — معجزة كل عصر — رجال يروعهم ضعف أساس الحضارة الغربية و الفكرة الغربية و إسرافها في المادة ، و تطرفها في القومية و النظر المادي القاصر المحدود إلى الإنسان ، و كل ما أنتجه و قام به من مظاهر العقل و الروح و البطولة ، و يثير ذلك فيهم النحوة الإسلامية و المعانى الإنسانية الكريمة العميقه و يثير فيهم روح الاستكثار و الترد على مثل الحضارة الزائفة ، و يكون فيهم مفكر حر مثل محمد إقبال و ثاؤرو داعية مثل محمد علي (١) و كانوا أولى بذلك من هذين فقد نشأ

---

١ - هو الرعيم الهندي المشهور محمد علي بن عبد العلي ، ولد في إمارة رام بور (في المقاطعة الشمالية الغربية) سنة ١٨٧٨ م و نشأيتها في حضانة أمه القوية النفس و الهمة ، و التحق بمدرسة بريللي الثانوية ، ثم انتقل إلى كلية علي كره الإسلامية ، و تخرج فيها في سنة ١٨٩٦ م ، و سافر إلى إنجلترا و انتسب إلى جامعة أوكسفورد حيث نال شهادة في الليسانس (B. A.) بامتياز و فاق في الأدب الانجليزي ، و احتوى على ثروة أدبية وأساليب اللغة الانجليزية المتنوعة كابناء البلاد ، و أصحاب اللغة ، و رجع إلى الهند لو شغل وظيفة كبيرة في إمارة بروده ، و مكث فيها سبعة أعوام ، ثم استقال منها وأصدر من كلكتنا سنة ١٩١١ صحفة (Comrade) الأسبوعية الانجليزية التي نالت إعجاب الانجليز و أدبائهم و حكمتهم بأسلوبها الأدبي الرصين و الفكاهة الحلوة —

الإثنان في بيئة بعيدة عن مهد الإسلام و مركز الثقافة الإسلامية ، و جرى في عروقهما دم غير عربي و غير إسلامي (١)، ولكن هذا الأمل لم يتحقق إلا في نادر الأحوال ، و رجع أكثر هؤلاء الشباب المسلمين طليعة الفكر الغربي ، و دعاء

و انتقلت بعد ذلك إلى دهلي ، و أصدر منها صحيفـة يومية اردوية سماها (عمرد) و نالت المكانة الرفيعة و القبول العام لصدق هجمتها ، و كتب مقالة مستفيضة في كورسيد طويلة بعنوان ( Choice of the Turks ) « اختيار الاتراك » ، إذنقد فيها سياسة الحلفاء و الانجلiz بصفة خاصة ، تعتبر من أقوى المقالات التي كتبت في الهند ، أثارت غضب الحكومة الانجليزية فاعتقلـها سنة ١٩١٤ و بقـي مدة الحرب العالمية ١٩١٤ - ١٩١٨ حفظ فيها القرآن و درس الإسلام دراسة عميقـة و أطلق في آخر سنة ١٩١٩ م و أسـس الجامعة المـلـىـة الـاسـلامـيـة فيـ سـنة ١٩٢٠ و اعتـقلـ مرة ثانية بتهمـة إثـارـةـ الجيش ضدـ الحـكـومـة و حـكـمـ عـلـيـهـ فيـ كـراـتشـىـ بـسـجـنـ عـامـينـ وـ أـطـلـقـ فيـ آـخـرـ سـنة ١٩٢٢ و رـأـسـ حـفـلـةـ المؤـتمرـ الوـصـىـ العـامـ ( Indian National Congress ) فيـ كـوـكـنـادـاـ فيـ جـنـوبـ الـهـنـدـ سـنة ١٩٢٣ـ ، وـ اـعـتـزـلـ المؤـتمرـ سـنة ١٩٢٩ـ وـ حـضـرـ مؤـتمرـ المـائـدـةـ الـمـسـتـدـيرـةـ سـنة ١٩٣٠ـ وـ خـطـبـ فيهاـ خطـبةـ هـذـيـمةـ ، وـ مـاتـ فيـ يـوـمـ ٤ـ مـنـ يـاـئـرـ سـنة ١٩٣١ـ ، وـ نـقـلـ جـسـهـ إـلـىـ الـقـدـسـ حـيـثـ دـفـنـ فـيـ الـمـسـجـدـ الـأـقـصـىـ فـيـ اـحـتـفالـ عـظـيمـ وـ جـنـازـةـ مـشـيـعـةـ تـشـيـعـاـ عـظـيـهاـ ، وـ وـرـثـاهـ كـبـارـ السـيـاسـيـينـ فـيـ الـأـقـطـارـ الـاسـلامـيـةـ وـ الـهـنـدـ ، وـ اـهـتـرـفـواـ بـعـصـاـمـيـتـهـ وـ عـقـرـيـتـهـ الـأـدـيـةـ ، وـ شـجـاعـتـهـ السـيـاسـيـةـ وـ حـمـيـتـهـ الـاسـلامـيـةـ ، وـ مـنـ الـأـقـوـالـ الـمـاثـورـةـ لـلـمـؤـرـخـ الـانـجـلـيـزـ الشـهـيرـ ( H. G. Wells ) إنـ مـحـمـدـ عـلـىـ جـمـعـ بـيـنـ قـلـبـ نـاـلـمـيـونـ ، وـ قـلـمـ مـيـكـالـيـ ، وـ لـسـاتـ بـرـكـ .

١ - كان محمد على من سلالة هندية في شمال الهند الغربي ، و محمد إقبال أشار إلى أصله الهندي كثيراً، فيقول في بيت يعاتب فيه شاباً ينتهي إلى أهل «بيت قد تأثر بالفاسدة تأثيراً عميقاً و مال إلى الأخلاق» أنت تنتهي إلى سيد بن هاشم في نسلك ، أما أنا — المؤمن بالاسلام و بمحمد صل الله عليه وسلم إيماناً لا يغريه شك — فان طينتي هندية ، و أنا انتهي في نسبتي إلى سومنات — معبد الوثنين القديم — و كان أباً من عباد اللات و مناة ، ( ضرب كليم )

متحمسين إلى تقليل الحضارة الغربية و قيمها و مفاهيمها و تصوراتها .

## صدى أفكار

المستشرقين في مصر : بل رجع كثير منهم متسبعين بروح الغرب يتفسون برؤة الغرب ، و يفكرون بعقله ، و يرددون — في بلدتهم — صدى أساتذتهم المستشرقين ، و ينشرون أفكارهم و نظرياتهم في إيمان عميق ، و حماسة زائدة ، فلا يقرأ انسان لعالم مستشرق في الغرب بحثاً و لا يعرف له نظرية إلا و يجد أدبياً أو مؤلفاً في مصر يتبنى هذه النظرية بكل إخلاص و يشرحها و يدعو إليها في كل لباقه و بلاغة ، مثل بشرية القرآن ، و فصل الدين عن السياسة ، و أن الإسلام دين لا دولة ، و الدعوة إلى العلمانية ، و الشك في مصادر العربية الأولى ، و الشك في قيمة الحديث العلمية و انكار مكانته و حججته و مكانة السنة في الإسلام ، و الدعوة إلى تحرير المرأة و مساواتها بالرجل و إلى السفور ، و كون الفقه الإسلامي مقتبساً من القانون الروماني ، و متأثراً به في روحه و سبكه ، و الدعوة إلى إحياء الحضارات السابقة على الإسلام ، و تمجيد العصر الفرعوني ، و التغنى بحضارته و أدبه و أمجاده ، و الدعوة إلى العامة و التأليف فيها ، و اقتباس الحروف اللاتинية و التقنين المدني العربي على أساس القانون المدني الغربي ، و الدعوة إلى القومية العربية و الاشتراكية المادية — و الشيوعية الماركسية

أحياناً - في العصر الأخير ، ترى ظلال الفكر الغربي بل التعبير الغربي وارفة مدددة على العقول العربية و الأقلام العربية مسيطرة عليها كسيطرة الأشجار الكبيرة على الحشائش الصغيرة ، منعكسة فيها . انعكاس الشمس في المرأة الوضيّة ، و قد شهد بتعلغل الأفكار الغربية في المجتمعات و الدول الإسلامية عالم مستشرق عرف الشرق الإسلامي ، و عرف تياراته الفكرية معرفة دقيقة ، يقول هـ ، أـ ، رـ ، جـ بـ في كتابه « إلى أين يتوجه الإسلام » ؟ : « و إذا أردنا أن نعرف المقياس الصحيح للنفوذ الغربي ، ولدى تغلغل الثقافة الغربية في الإسلام كان علينا أن ننظر إلى ماوراء المظاهر السطحية ، ... علينا أن نبحث عن الآراء الجديدة و الحركات المستحدثة التي ابتكرت بدافع من التأثير بالأساليب الغربية بعد أن تهضم و تصبح جزءاً حقيقياً من كيان الدولة الإسلامية ، فتتخد شكلًا يلائم ظروفها (١) »

### اتجاه حركة التأليف والترجمة

إلى الأدب و الاجتماع : و كان هؤلاء الأدباء و الكتاب قد أسلوا معرفة كبيرة ، و أحسنوا إلى مجتمعهم و بلادهم و لغتهم لو نقلوا الكتب من اللغات الغربية المؤلفة في أغراض العلوم التجريبية المادية بكل فروعها الكيميائية و الطبيعية و الميكانيكية

1 - Wither Islam P. 328 - 329

الترجمة مأخوذة من رسالة ، في وكر الهدامين ، لدكتور محمد محمد حسين .

النظرية و التطبيقية ، التي لا تزال المكتبة العربية فقيرة فيها كما فعل الأدباء في اليابان خولوها إلى بلاد صناعية تضارع أعظم الدول والأقطار الأوربية في العلوم الطبيعية و الصناعية ، وكما فعلت دار الترجمة في حيدر آباد ، ولكن انصرفت عن ايتهم و هو ايتهم إلى ترجمة كتب الأدب و علم الاجتماع و الفلسفة و التاريخ ، و الروايات و القصص ، و ترجمة كتب كثير من دعاة الاحاد و الثورة و الاضطراب الفكري في المجتمع الغربي ، التي ساعدت في انتشار التبليل الفكري و الاضطراب الاجتماعي ، و ضعف شخصية الفكر العربي و الأدب العربي ، و أحدثت اضطراب الأفكار و المثل و مناهج الفكر .

و قد وجد لهذا الاتجاه الأدبي كتاب و أدباء في مصر لهم قيمة أدبية و انتاج أدبي كبير ، و لكن لم يظهر في مصر و لا في الشرق العربي نوابغ و عباقريون في العلوم العملية وفي مجالات الطبيعة و الكيمياء ، و علم الآلات و العلوم الرياضية ، يعترف العالم الغربي بتفوقهم في هذه العلوم ، و بقيمة بحوثهم و إنتاجهم العلمي ، وينالون إعجاب الأوساط العلمية الكبيرة وتقديرها .

صورة من الحياة الغربية : و وجد في مصر كتاب ، أدباء دعوا دعوة سافرة إلى تقليد الحضارة الغربية ، و اتخاذها مثلاً أعلى في الحضارة و الاجتماع ، وكانت مصر — لبقائهما تحت الاحتلال الغربي مدة طويلة ، و بحكم قربها من أوروبا و بفقدان الدعوات

الدينية التجايدية المؤسسة على النقد العلمي — تزداد انصباغا بالحضارة الغربية كل يوم ، و تتجه إلى الغرب اتجاههاً مستمراً ، حتى كادت تصبح في الطبقة المثقفة و الارستقراطية صورة من الحياة الغربية ، و استطاع الدكتور طه حسين في سنة ١٩٣٨ م أن يصور بلده تصويراً غريباً ، و يقول في كتابه المشهور « مستقبل الثقافة في مصر » :

« حياتنا المادية أوربية خالصة في الطبقات الراقية ، و هي في الطبقات الأخرى تختلف قرباً و بعداً بين الحياة الأوروبية باختلاف قدرة الأفراد و الجماعات و حظوظهم من الثروة و سعة ذات اليد ، و معنى هذا أن المثل الأعلى للأصري في حياته المادية إنما هو المثل الأعلى للأوربي في حياته المادية (١) ،

« و حياتنا المعنوية على اختلاف مظاهرها و ألوانها أوربية خالصة ، نظام الحكم عندنا أوربي خالص ، نقلناه عن الأوروبيين نقلاب في غير تحرج و لا تردد ، و إذا عينا أنفسنا بشيء من هذه الناحية فأنما نعييها بالابساط في نقل ما عند الأوروبيين من نظم الحكم و أشكال الحياة السياسية (٢) ،

« و التعليم عندنا على أي نحو قد أقنا صروحه ، و وضعنا منهاجه و برامجه منذ القرن الماضي ؟ على نحو الأوروبي الخالص ، ما في ذلك شك ولا نزاع ، نحن نكون أبناءنا في مدارسنا

١ - مستقبل الثقافة في مصر ص ٢٢

٢ - إيهام ص

الأولية و الثانوية و العالمية تكويننا أوربياً لا تشوبه شائبة (١) ،  
و يستخلص من هذا كله النتيجة الآتية ،

«كل هذا يدل على أننا في هذا العصر الحديث نريد أن  
نحصل بأوربا إتصالاً يزداد قوة من يوم إلى يوم حتى نصبح جزءاً  
منها لفظاً و معنى و حقيقة و شكلـاً (٢) »

دعاة طه حسين مصر إلى اعتبار

نفسها جزءاً من الغرب : لقد كان من المتوقع ومن المعقول  
جداً أن مثل الدكتور طه حسين صاحب الشخصية القوية في  
الأدب و العلم ، الذي حفظ القرآن في الصغر ، و درسه في الكبر  
و تعلم في الأزهر ، و نظر في العلوم والآداب نظرة حرة واسعة ،  
و رأى شقاء أوربا بحضارتها المادية و فاسقاتها الإلحادية ، و  
حكوماتها القومية ، و تذمر مفكريها و العلماء الاحرار فيها ، و  
درس تاريخ العرب و السيرة المحمدية دراسة تذوق و إتقان ،  
لقد كان من المتوقع والمعقول جداً ، أن يدعوا مصر إلى الاستقلال  
الفكري و الحضاري ، و تربية شخصيتها الإسلامية العربية ، و  
النهوض برسالتها العظيمة التي تستطيع أن تحدث انقلاباً في الأوضاع  
العالمية ، و تمنع مصر مركز الزعامة و القيادة و التوجيه حتى و  
لو كانت مصر جزءاً من العالم الغربي ، و قطعة من أوربا ،  
فالرسالات السماوية الإنسانية أسمى وأوسع وأبقى من الحضارات ،

و هي غنية عن الحدود الجغرافية ، و الأدوار التاريخية ، و إذا فعل ذلك ، و قام بهذه الدعوة كان رائد النهضة الفكرية الحقيقة ، و الثورة المصرية المباركة ، و اتفق ذلك مع دوافعه العظيمة كل الاتفاق .

و لكن كان من نتائج تغاغل الثقافة الغربية في الطبقة المثقفة في العالم الإسلامي و سيطرتها على التفكير و المشاعر ، ضعف المجتمع الإسلامي الذي نشأ و عاش فيه طه حسين إنه قام يدعو مصر إلى اعتبار نفسها جزءاً من الغرب ، و يحمد كل ذكائه و إنشائه و دراسته التاريخية لابدات أن العقلية المصرية عقلية أوروبية أو قرية قرباً شديداً من الأوروبية ، و لها اتصال وثيق بالعقلية اليونانية ، و بعيدة كل البعد عن العقلية الشرقية ، و هي منذ قديم الزمان ، منذ العهد الفرعوني لم تتأثر بالطريق عليها في أي عصر ، فلم تتغير بالفرس ، و لا بالرومان و لا بالعرب والاسلام ، « إن العقل المصري منذ عصوره الأولى عقل إن تأثر بشئ فانما يتأثر بالبحر الأبيض المتوسط ، و إن تبادل المنافع على اختلافها فانما يتبادلها مع شعوب البحر الأبيض المتوسط (١) » و يقول : « إن من السخاف الذي ليس بعده سخف اعتبار مصر جزءاً من الشرق ، و اعتبار العقلية المصرية عقلية شرقية كعقلية الهند و الصين (٢) » و على هذا الأساس يدعوه الدكتور طه حسين المصريين

١ - ايضاً ص ٢٢

٢ - ايضاً ص ٤١

إلى اختيار الحضارة الغربية حضارة لهم ومشاركة الغربيين — أعضاء الأسرة العقلية الواحدة — في جميع مناهجهم ومقاييسهم وأذواقهم وأحكامهم فيقول :

.... أن نسير سيرة الأوربيين ونسالك طريقهم لنكون لهم أنداداً و لنكون لهم شركاء في الحضارة ، خيرها و شرها ، حلوها و مرها ، و ما يحب منها و ما يكره و ما يحمد منها و ما يعاب (١) ،

و أن نشعر الأوربي بأننا نرى الأشياء كما يراها ، و نقوم الأشياء كما يقوم بها ، و نحكم على الأشياء كما يحكم عليها (٢) ، مستوى فكري نازل : إن هذا المستوى الفكري ، مستوى التقليد و التطبيق و التشبه و الانسجام بالغرب ، وإن قياس التبعات و الواجبات و الرسالات بمقاييس الجغرافية و التاريخ و طبائع الأمم و عقلياتها في ضوء التاريخ القديم ، مستوى كناتاتوقع من عالم مصرى و أديب مفكر مثل الدكتور طه حسين أن يترفع عليه ، و قد ترفع على ذلك بعض القادة الشرقيين في أقطار غير إسلامية فصاروا يلهجون بالجامعة الإنسانية و النظرة الآفاقية ، و المثل الخلقية و الروحية التي هي فوق الحدود و الشغور و فوق المناطق الحضارية و الثقافية في العالم القديم أو الجديد ، ويُكفرون بالروابط التي توزع الأسرة الإنسانية المؤحدة بين الأوطان و

٤ - ايضاً ص ٤٤

١ - ايضاً ص ٤

الأجناس و المناطق الحضارية و بين العالم الغربي و العالم الشرقي ،  
و كان المسلم العربي أحق بهذه الفكرة الواسعة و أحق بأن  
يتزعم هذه الدعوة و يقودها فانه نشأ في ظل شجرة مباركة  
زيتونة لا شرقية ولا غربية ،

### الطبعة الجديدة العربية

للحركة الكمالية التركية : لم تزل الثقافة الأجنبية — في داخل  
البلاد و خارجها ، ولم تزل الدعوة إلى ، التغريب ، والفلسفات  
الغربية المادية التي ترد إلى البلاد من الخارج ، و يتطاوع لنشرها  
و شرحها كبار الأدباء و الكتاب في البلد ، تعمل عملها  
الظيعي في أذهان الناس و تلتئمها الطبقة الجامعية المثقفة و الشباب  
الناشئ و الضباط في الجيش ، وكل ذكي و ثائر على الأوضاع  
الفاسدة السائدة التي لا تطاق ، و تظمر في هذه الأغراض كتب  
و مؤلفات يقرؤها الشبان عند المراهنقة الفكرية فيسigoونها و  
تصبح جزءاً من ذكرتهم و عقيدتهم و مطاعهم في الحياة ، و  
ينظرون إلى هذه الفلسفات كالطريق الوحيد للنجاة بالبلاد و بمحاراة  
الدول و الأقطار الحرة الراقية ، و تعجز المعرف و وسائل  
التربية و التوجيه و الأدب المقبول عن أن يخلق في هؤلاء تفكيراً  
أسني و طموحاً أبعد من هذه الخطط التقليدية المرسومة المرددة في  
كل بلد ، و التي سبق إليها كمال أتاتورك ، و تحققـت له الزعامة  
في حركة التغريب ، و تطوير البلاد و المجتمع و العقلية . من الأساس

الإسلامى اليمانى إلى الأساس الغربى المادى ، فيحاولون تقييدها و تطبيقها فى بلادهم باختلاف نوع القومية (١) ، و باضافة الاشتراكية التى لم تبلغ فى مصر كمال أتاتورك هذا الطور الواضح المتميز القوى ، و لم تكسب هذه السيطرة ، و هذا السحر على العقول و الأفكار ، و لم يرق لهذه الطبقة إلا أن تتولى القيادة و تجد فرصة لتطبيق مخططها الفكري .

جاءت ثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢م و نجحت طبيعة الحال و رحب بها كل ساخط على الأوضاع الفاسدة و كل محب للبلاد و للنهاية و القوة و الاستقلال ، و عقد بها الناس – على اختلاف طبقاتهم و وجهات نظرهم – آمالاً كثيرة مختلفة ، و كان فى إمكانها و استطاعتتها أن تعيد إلى مصر مكان الصدارة في العالم العربي ، الزعيم للإسلام و مكان التوجيه و الثقة و الاحترام في العالم الإسلامي ، و أن تشق طريقها إلى الأمام ، و أن تنهج لها نهجاً في الحياة يواافق طبيعة الشعب المصرى المسلم القوى في إيمانه و في عاطفته الدينية ، و طبيعة العالم العربي الذى أبى الله أن ينهض و يتهدى و يسود إلا بهذا الدين الذى اختاره لزعامة و قيادته ، أو يواافق طبيعة العالم الإسلامي الذى لا ينشط و لا يتحمس ولا يرتبط إلا بدعوة دينية ، و يواافق طبيعة مصر الذى ضاق بالقوميات و تخاطى – في سيره الحيث – العصبيات التي تقوم

١ - القومية العربية بدل القومية التركية .

على أساس العنصرية أو اللغة أو اللون أو الوطن ، وصار ينظر إلى هذه الروابط و الجامعات كدعوات رجعية جاهلية تمزق الأسرة الإنسانية و الوحدة البشرية ، و يتضرر من شعب عربي قيادة أوسع نظراً وأكثر « تقدمية » من القوميات ، وكل يتضرر من قادة هذه الثورة الموقفة عقلية أوسع ، و صدرأً أرحب ، وذكاءً أكثر عمقاً ، وخطيباً أكثر أصالة ، و مطابقة ل الواقع .

محاولة تطوير المجتمع  
المصري والعربى كلباً : و لكن تحقق سريعاً أن هذه الثورة ليست إلا « الطبيعة العربية الجديدة » ( مزيدة منقحة ) بحركة التغيير والتطوير التي تزعمها كمال في تركيا ، و أنها فكره مستقلة ، و فلسفه قائمه بذاتها ، و خطة كاملة . صممه تصميمها دقيقاً لتطوير المجتمع المصري - وبواسطته وعن طريقه - المجتمع العربي تطويراً قومياً مادياً اشتراكيآ ، حتى تصبح مجتمعاً جديداً ، « يستخاذ لنفسه علاقات اجتماعية جديدة تقوم عليها قيم أخلاقية جديدة و تعبّر عنها ثقافة وطنية جديدة (١) ، و ينظر إلى الحرية ، و الاشتراكية ، و الوحدة (٢) . كأسس الحياة و أهداف النضال و يبحث عن جذور النضال المصري . في التاريخ الفرعوني صانع

---

١ - نفس التعبير الذى جاء في النص الرسمى لميثاق العمل الوطنى الذى قدمه الرئيس جمال عبد الناصر فى المؤتمر الوطنى القوى الشعوبية فى يوم ٢١ مايو ١٩٦٢م انظر الباب الأول نظرية عامة .  
٢ - ايضاً

الحضارة المصرية و الانسانية الأولى (١) ، و يحدد نضاله للأمة العربية التي تقوم على وحدة اللغة التي تصنع وحدة الفكرة و العقل و وحدة التاريخ التي تصنع وحدة الضمير و الوجود ، ووحدة الأمل التي تصنع وحدة المستقبل والمصير (٢) ، أما الدين الاسلامي — الذي هو دين العرب إلا من شذ منهم — فينظر إليه كأى دين من الأديان الكثيرة التي تدين بها أمة أو بلاد ، و يضعها جمعياً في صعيد واحد ، و مستوى واحد ، و يسمح لها بالبقاء و يعترف بها — جمعياً — بالشرف و التأثير . إن عقيدة العقيدة الدينية يجب أن تكون لها قداستها في حياتنا الجديدة الحرة ، إن القيم الروحية الخالدة النابعة من الأديان قادرة على هداية الإنسان و على إضافة حياته بنور الإيمان و على منحه طاقات لا حدود لها من أجل الخير و الحق و المحبة (٣) ، و يتكلم عن هذه الأديان كأى اشتراكى مادى لا ينظر إلا إلى قيمة الأديان المادية و الثورية و دورها في تاريخ الإنساني ، و لا يؤمن بالآخرة و الحقائق الغيبية ، و إلى قيمة العقيدة الدينية و الثواب الآخروى . إن رسالات السماه كلها في جوهرها كانت ثورات إنسانية ، استهدفت شرف الإنسان و سعادته ، و إن واجب المفكرين الدينيين الأكبر هو الاحتفاظ للدين بجوهر

١ - الميثاق القرمى الباب الثالث .

٢ - بهذا الباب الرابع .

رسالته (١) ، و ينظر إلى المجتمع و أعضائه و حقوقهم نظرة لا تقييد بالتشريعات الإسلامية و المحدود التي يبنها الله تعالى للإنسان ، وإنما تقوم على أساس المجتمع الغربي والتفكير العصري، فالمرأة في نظره « تساوى بالرجل ولابد أن تسقط بقایا الأغلال التي تعيق حركتها الحرة حتى تستطيع أن تشارك بعمل و ايجابية في صنع الحياة (٢) »

و بصرف النظر عن هذه التفاصيل والشواهد فإنه مما لا شك فيه أن الفكرة التي تسيطر على هذا الميثاق و واضعه ، و التي دفعت إلى سبکه في هذا القالب هي الفكرة المادية ، و الإنسان أن يسحب من نص الميثاق كلة العرب و مصر التي تتردد كثيراً و مايدل على البيئة التي صدر فيها هذا الميثاق . و ينسبة إلى أي جمهورية علمانية اشتراكية في الشرق ، وكلها تعترف بحرية العقيدة الدينية و قداستها ، و بتأثير القيم الروحية الخالدة النابعة من الأديان في تاريخ الإنسان و المدنية .

و قد اتخذ قادة الثورة خطوات حاسمة ايجابية لتطوير المجتمع المصري و تطوير العقلية المصرية - كمرحلة إلى تطوير العقلية العربية - فشجعوا على الإشادة بالقومية العربية كدينية و عقيدة ، و جعلوا الأدب و الكتاب يتغدون بها ، كالمهد الأسمى ، و يتغدون بأمجاد العهد الفرعوني ، و الدولة إلى إحياءها ، و الفرعونية

٢ - ايضاً ، الباب السابع

١ - ايضاً ، الباب السابع

كقومية و حضارة و تراث ، و هتف الهائلون « نحن أبناء العرب و الفراعنة » و لم تعد كلية « فرعون » تثير في النفوس الكراهية و الاحتقار ، و معانى اللعنة و العار . التي الحقها به القرآن ، و آمن بها المؤمنون في كل مكان و زمان ، و أصبح العرب وعروبة تشارك الله في العزة و الكرامة . فيقول الفائلون « العزة لله و للعرب » و يرجون بكل من يغلو في ذلك ويبالغ و لو وصل إلى درجة الكفر ، و خرج من الإسلام ، و يشجعون على ذلك بالجوائز و الصلات و أنواع التحبيذ وأساليب التحسين ، و أرخوا العنوان للكتاب والصحفيين يسترسلون في ذلك ماشاءوا . و سمحوا للصحف أن تستهزئ بالدين و شعائره و مقدساته و تنهك الحرمات و تنشر في المجتمع الخلاعة و الاستهتار و الميوعة ، و لم يزدها التأمين إلا خبالا و إسرافا في نشر الصور العارية الخليعة ، و الروايات الماجنة و القصص الغرامية ، و أخبار الحوادث المشيرة للغريرة الجنسية و الإجرام . حتى يتطور المجتمع و تتطور العقلية و تأخذ لونها المادي . و طابعها الاشتراكي . و اتخذوا لتطوير المجتمع خطوات ايجابية أخرى ، من تطوير الأزهر ، وإلغاء المحاكم الشرعية ، والقضاء الشرعي ، والوقف الشرعي و من التعليم المختلط والعنابة الزائدة بالبرامج الثقافية ، و الرقص والغناء .. و تأثير الثورة المصرية و قيادتها في العالم العربي : و أصبح الشباب العرب . و كل ذي

طموح من تمنى بحد العرب و تمنى لهم كياناً و دولة قوية موحدة تقام في الشرق الأوسط يتخذ « الجمهورية العربية المتحدة » مثلاً أعلى و يدين بحبها و يعتبرها اتفاقية الروح العربية تعيد إلى العرب كرامتهم ، و مجدهم الغابر و سعادتهم المطلوبة ، و لا غرابة في ذلك ، و لا ما يستحق اللوم والعتل ، فالإنسان مفظور على حب المجد و الغلة و القوة . و للشباب العرب كل حق في أن ينشدوا المجد ، و يريدوا القوة . و يعضوا على الوحدة بالتواجذ ، و لكن - مع الأسف الشديد - قد اقترنت بالثورة المصرية و فلسفتها في العهد الأخير معانٍ و حوادث و تصرفات ، و توجيهات تضعف قيمة الإسلام و تقطع رابطة هؤلاء العرب و قادتها عن إخوانهم في العالم الإسلامي ، و تنشئ فيهم المبالغة في تقديس القومية العربية . و التعصب لها ، و الإيمان بها كفكرة كاملة و ديانة لها مفهومها العقائدي . و قد بدأ الاحقاد ينتشر بسرعة غريبة في الشباب المثقف في العواصم العربية و تصدر من المتحمسين منهم كلمات يخاف منها على صاحبها الكفر و المروق من الدين . و أصبحوا لا ينظرون إلى الرسول الأعظم - صلي الله عليه وسلم - كمنفذ للعرب . و مصدر الحياة الجديدة و الكرامة و الشرف و الخلود لهذا الشعب العظيم . و يرجعون إلى الماضي السحيق و يحيون أمجاده و حضارته . و يغضبون للجاهليّة إذا ذمت و تأخذهم حمية الجاهلية .

طليعة ردة فكرية : إن نذير شر خطير ، و طليعة ردة فكرية و ثقافية و دينية لا يداركها و لا يجبر كسرها أعظم مجد ، و أقوى دولة ، و أكبر هبة ، و أهول قوة ، إنها خسارة ليست فوقها خسارة . إنها طريق إلى الخزي و العار ، و التشتت و الفرقة ، و الهزيمة و الإخفاق بعد الإخفاق ، و الخيبة إثر الخيبة في الدنيا ، و لعذاب الآخرة أخزي لو كانوا يعلمون ، و يصدق عليهم قوله تعالى ، « قل هل نسبكم بالأخرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، و هم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً » أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقاءه ، فبخط أعمالهم فلا تقيم لهم يوم القيمة و زنا (١) .

### الأقطار الإسلامية المتحررة

حديثاً في طريق « التغريب » : و أخاف أن تكون هذه قصة القادة المتجددين الثوريين ، و قصة كثير من الأقطار الشرقية التي تحررت و نالت استقلالها في مدة قرية ، يظهر أن زعماءها و ولاد الأمور فيها قد صمموا على تطبيق الفلسفية الفكرية الغربية - بشعبها الاقتصادية و السياسية و الثقافية - و فلسفة القومية المادية في بلد़هم الإسلامي ، فهم في حرب دائمة دامية مع الطبيعة الإسلامية العميق الجذور الممتدة العروق ، و في صراع مع الجهاز الاجتماعي والعلمي و الخلق . الذي فيه الخير الكثير والقوة التي

### ١ - الكهف

ترهيب و يحسم لها الحساب ، و يمكن أن تنسى و استغفل للصالح  
الأمة و البالد ، و في صراع مع المعنويات التي نسأت و رسمت  
في نفوس أفراد هذه الأمة وأجيالها . بجهود بارزة و دماء زكية  
بنية ، و إخلاص ليس له نظير ، و على حساب الإيمان — بالله  
و بالرسول و بالنبي — الذي لا يصنع في المسابع ، و لا يولد  
بالخطيب أرذلة ، و لا يجعله إلا تأثير الرسل و شخصيتهم التوفيقية ،  
و جهود الدولة الخالصين من العاراز الأول ، و الذي إذا فقد من  
الأمة لا يعود بسمولة ، و لا يملا فراغه شعور قومي ، أو وعي  
سياسي أو تقدم في المعرفة و الثقافة ، و الذي صنع المعجزات في  
القديم ، و خلائق بأن يصنعها في كل وقت ، و على حساب العاطفة  
الدينية التي يرجع إليها الفضل في الفتوح و الانتصارات القومية  
و السياسية ، و تحلت قوتها في معركة القناة ، و تحرير الجزائر ،  
و تكوين دولة على أساس الإسلام و القومية الإسلامية في شبه  
قارة الهند (١) لا يحلم بها في عصر السياسة الوطنية والعالمانية .

عملية هدم و إزالة أنقاض : و هكذا تغزو شجرة الحصاررة الغربية

و الفلسفة الغربية التي ساهم في نشأتها و سموها مناخ خاص ، و  
سوق خاص ، و غذاءً خاص ، و قد توفرت هذه العوامل كلها  
في الأراضي الأوروبية ، تنقل هذه الشجرة — بعد ما كبرت و  
ترعررت — إلى الأرض الإسلامية فتغزو فيها و تنصب بقوه ،

١ - و هي دولة باكستان .

و يبدأ لها الجحود ، و يحفر لها الأرض حفراً عميقاً ، و يقوم  
الحربيون على نصبهما في البلد الإسلامي بعملية الددم الواسعة وإزالة  
الأنقاض الفكرية و الاجتماعية -- كلّ يسوسنها -- من حولها ،  
و تستغرق هذه العمليّة المدamaة جهوداً و طاقات و أوقاتاً كانت  
تعود على الأمة و على البلاد بنفع كبير ، لو وجهت إلى عملية  
إيجابية بناءً ، و إلى إثارة القوى الكامنة في نفوس رجال هذا  
الشعب الإسلامي عن طريق الإيمان والدعوة الدينية ، و الاصلاح  
الخليقي .

رجعيّة التقدّميين : وقد يلجم هؤلاء المتجددون في سبيل التجدد  
إلى بعض الفلسفات و النظم و الروابط ، التي فقدت قيمتها و  
مكانها في المجتمع الأوروبي من زمان ، و أصبحت تعتبر من  
الشعارات الرجعية و من التجارب القديمة التي لجأ إليها القادة في  
أوروبا في ظروف خاصة ، و في وقت محدود ، ثم استغنووا عنها  
بما رأوا من أضرارها و جنایاتها و تركوها إلى فلسفة أو فكره  
أفضل منها و أوسع ، و خير مثال لذلك ، القومية ، التي تخلت  
عنها أوروبا تقرّباً و بعض عليها بعض القيادات في الشرق الإسلامي  
بالنواخذ ، و ترى فيها الأسلوب الأخير من التفكير ، و آخر  
ما وصل إليه العقل البشري من وسائل التنظيم و التخطيط مع أنها  
من بقايا عصر البداوـة و الحياة القبلية المحدودة في صورة موسعة ،  
و طمر بالخلفه الأوروبيون ، و من العوامل المدamaة التي فرقت

المجتمع البشري و وزعت الجليل الانساني على نفسه .

تقليد دعاء التجديد : إن هذه المحاولة المخلصة الملحة لتطبيق تجربة الحياة الأوروبية في بلد إسلامي يبرهن على أن قادة هذه البلاد - وإن دوت أسماؤهم في العالم وقادوا الجماهير الكثيرة - لا يزالون - رغم ثقافتهم العصرية الواسعة - في دور الصغولة التقليدية التي يكثرون فيها التقليد و المحاكاة و التأذية المتواضعة لأساتذتهم الغربيين ، وأن شخصياتهم مجردة عن كل ابتكار وعن القدرة على الانتاج الأصيل و الإبداع ، وعن التفكير الحر ، وإنهم فضلاً عن جهاتهم أو تجاهاتهم لطبيعة الشعوب التي يحكمونها و مواهيبها و طاقاتها لا يسايرون الفكر الأوروبي في تقدمه و أطواره ، ولا يعرفون ما يحيش به المجتمع الأوروبي من قلق و تذمر ، و بحث عن الإيمان و الروحانية .

### صراع بين الحكومات

و الشعوب : إنهم في بلاد و شقاء من هذه الشعوب التي لا يسلم عليها التخلّي من المبادئ الدينية ، و من ثروتها اليمانية و من تراثها الغني ، و الانقطاع عن منابع الحياة و القوة التي تكمن في مصادرها الدينية ، و أدبها الإسلامي ، و تاريخ الاصلاح و التجديد ، فهم في عملية هدم واسعة الأكتاف ، طويلة المدى ، تجربة من جهات كثيرة ، و الشعوب الإسلامية - التي وقعت تحت حكمهم و قيادتهم - في بلاد و شقاء من هولاء القادة ،

فِيهِمْ بِخَارِبَوْنَ طَبِيعَتْهَا وَ يَقُولُونَهَا بِهَتَافَاتٍ وَ شَعَارَاتٍ لَا تُسِيغُهَا هَذِهِ  
الشَّعُوبُ وَ لَا تَرْتَطِطُ لَهَا ، وَ لَا تُسْتَطِعُ أَنْ تَجْبِيَ إِلَيْهَا الْمَوْتَ .  
الْفَدَاءُ ، وَ تَهُونُ عَلَيْهَا بَذْلُ النَّفُوسِ وَ الْأَمْوَالِ وَ الْهِجْرَةُ مِنِ  
الْأَوْرَادِ ، وَ تَنْتَلِبُ عَلَى الشَّهُورَاتِ وَ الْأَذَانِيَّةِ الْفَرَدِيَّةِ ، وَ قَدْ عُرِفَ  
هُوَ لَاَءُ الْقَادَةِ ضَعْفٌ هَذِهِ الْهَتَافَاتُ وَ الشَّعَارَاتُ فِي إِثْرَةِ الْجَيْشِ ،  
وَ إِشْعَالِ الْحَمَاسَةِ فِي نَفُوسِ الْجَاهِلِيِّينَ فِيهِمْ يَلْجَأُونَ دَنَّاً أَيَامَ الْجَنَاحِ  
وَ الْمَارِكَ الْدَّمَوِيَّةِ الْخَاصَّةِ إِلَى الْهَتَافَاتِ الْأَذَانِيَّةِ وَ الشَّعَارَاتِ الْقَدَرِيَّةِ  
مِنَ الْجَهَادِ فِي سَبِيلِ الْإِسْلَامِ وَ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّىْ إِذَا وَضَعَتْ  
الْحَرْبُ أُوزَارُهَا ، وَ تَسْلِمُوا مَفَاتِيحَ الْبَلَادِ ، عَادُوا إِلَى هَتَافَاتِهِمْ ،  
وَ شَعَارَاتِهِمُ الْقَوْمِيَّةِ وَ الزَّمْنِيَّةِ ، وَ يَفْتَرِضُونَ أَنَّهُمْ يَحْكُمُونَ شَعُوبًا  
لَيْسَ لَهَا دِيَانَةٌ تَحْبِهَا وَ تَقْدِسُهَا وَ تَسْتَمِيتُ فِي سَبِيلِهَا ، وَ لَيْسَ  
لَهَا عَاطِفَةٌ دِينِيَّةٌ تَحْتَاجُ إِلَى التَّرْبِيَّةِ وَ الْاسْتِشَارَ .

إِهْمَالُ طَاقَاتٍ وَ كَنْزَاتٍ مُخْبُوَةٍ : وَ هَكَذَا تُضِيغُ طَاقَاتٍ هَذِهِ الشَّعُوبُ  
وَ مَوَاهِبُهَا ، وَ إِمْكَانِيَّاتُهَا الَّتِي لَوْ اسْتَهْمَرْتُ وَ قَدِرْتُ حَقَ التَّقْدِيرِ ،  
وَ كَانَ الْقَادَةُ « رَاقِعِيْنَ » أَكْثَرُهُمْ « خَيَالِيِّينَ » لَفَعْلَتْ  
الْأَعْجَيبُ ، وَ كَانَتْ قَوْةٌ يَحْسَبُ لَهَا الْحِسَابُ الْكَبِيرُ فِي مِيزَانِ  
الْقُوَى وَ فِي مِيزَانِ « الْمَعْسَكَرَاتِ » وَ لَا سَبَبٌ فِي ذَلِكَ إِلَّا ضيقُ  
تَفْكِيرٍ هُوَ لَاَءُ الْقَادَةِ ، وَ تَقْلِيدُ هَذِهِ الْخَضَارَةِ ، وَ التَّصْمِيمُ عَلَى  
نَطْبِيَّةِهَا فِي بَلَدِهِمْ بِحَذَافِيرِهَا ، وَ هَذَا بِتَأْثِيرِ الْقَوْافِةِ الْأَجْنبِيَّةِ الَّتِي تَلْقَوْهَا  
فِي الْخَارِجِ ، أَوْ خَضَعُوهَا وَ هَضَمُوهَا فِي دَاخِلِ بَلَادِهِمْ .

خضوع قادة البلاد الإسلامية  
للحضارة الغربية وقيمها : ويعجبني في ذلك ما قرأته حديثاً  
لكاتبة أمريكية فاضلة اهتدت إلى الإسلام قريباً ، وهي تصف  
هذه الطبيعة الحاكمة ، وقادة البلاد الإسلامية وخصوصيتها الثقافية  
الغربية وتقديسها الزائد للحضارة الأوروبية ، تقول المفاضلة مريم جليلة  
(Margaret Marcus) سابقاً ، في كتابها الجديد - (Islam Versus the West.).

إن الحضارة الغربية بقوتها الاقتصادية و السياسية الفائقة ،  
استطاعت أن تبسط نفوذها على العالم كله ، ولما استطاعت  
الشعوب الآسوية والأفريقية أخيراً أن تنتصر في صراعها للحرية  
السياسية ، وتحررت من النير الأجنبي ، كانت حضارتها المحلية  
قد تحطم قدراً ، إن قادة هذه الشعوب من غير استثناء تلقوا  
ثقافتهم في معاهد أوروبا وأمريكا ، وكانت هذه المعاهد و  
أساتذتها قد علّموهم أن ينظروا إلى تراثهم الثقافي القومي بنظر  
الاحتقار والإزدراء ، كانوا قد خضعوا عقلياً لفلسفات  
الحضارة المادية .

و هكذا فإن قادة آسيا وأفريقيا متتفقون مع القادة  
الأوربيين والأميركيين على أن الهدف الأساسي ، والمثل الأعلى  
للمجتمع البشري هو تقدمه عن طريق الصناعات الثقيلة ، ورفع  
مستوى الحياة المادية ، وتوسيع القوة الاقتصادية و السياسية ،

و هنا لا ينبغي لنا أن نخاطط بين أساليب الإسلام لتقرير العدالة الاجتماعية بالأساليب الفرية للوصول إلى هذا الغرض ، الإسلام ينظر إلى الرخام المادي كرسالة ، و بالعكس فإن الغرب ينظر إليه كغاية .

لا عجب إذا كان الزعماء الآسيويون والأفريقيون مهتمين كل الإعجاب بأساليب حكم الاستبداد الجماعي السائد في أوروبا وأمريكا، إنهم في إعجابهم الشديد بما وصلت إليه الصين الشيوعية من التقدم و بما حازته من شرف و مكانة يحرضون أشد الحرص على تطبيق النظم الاقتصادية والسياسية الغربية في بلادهم ، أما ما دفعت الصين من ثمن باهظ لتوسيعها السياسي والاقتصادي ، و كان ذلك الثمن شقاء ملائين من أفراد الشعب الصيني ، و تحطم حياتهم ، فلا يهمهم في قليل ولا كثير ، لأن مبدأهم « إن الغاية تبرر الواسطة »

قد يجد البعض الناس أن النبوغ و اختلاف الألوان الذي كان يوجد في ثقافات العالم إذا ضعف فإنه سيتهى بالشعوب إلى وحدة أقوى و انسجام أكثر في الناس ، و لكننا شاهدنا بالعكس أن مبدأ هذه الحضارة الأساسية – الذي ظل يسيطر على جميع اتجاهاتها و تصرفاتها – هو الثورة على جميع القيم الروحية و الدينية ، و لما كان هذا الاتجاه ، و هذا المبدأ هما المسيطرین على العالم المعاصر ، لذلك نواجه اليوم من الكراهة الشديدة ، و الحروب الدامية ، و الثورات السفاكة للدماء ما لم نواجهه قبل هذا

اليوم في التاريخ ، وقد فقد الشعور بالمسؤولية في العلاقات الدولية ، فالمشاون لأنهم في جلسات الأمم المتحدة لا يتورعون أبداً عن الكذب ، وهم يحرفون الحقائق لصالحهم القومية الخاصة من غير أن يجدوا وحزماً أو تأسيساً من الضمير ، لأن المبدأ الذي يؤمنون به هو أن كل عمل يخدم مصالحهم القومية – ولو كان ذلك على حساب البلاد الأخرى – لا يعتبر خطأً أو جريمة ، إن هؤلاء الممثلين في الأمم المتحدة لا يصوتون على أساس أن القضية حق وصواب ، إنما يصوتون لأن ذلك في مصالحة شعبهم أو بلادهم فحسب . إن جنائية قادة الأقطار الإسلامية ليست أقل من أي واحد في بلد آخر إنهم انخدعوا أيضاً ، بفلسفات المادة الغربية ، إن بعضهم يتحدث بالكلمات المسئولة الرنانة عن الحاجة إلى تطبيق الإسلام مع روح العصر الحاضر ، و للوصول إلى هذا الغرض هم يدعون إلى الفصل بين تعليمات القرآن الاجتماعية وبين تعليماته الروحية ، ويقولون إن المادة الأولى يعني تعليمات القرآن الاجتماعية كانت ظل ما كانت عليه الجزيرة العربية في القرن السابع المسيحي من أحوال اجتماعية و صورتها ، فيجب أن ترفض على أساس أنها لا تلائم قضايا اليوم التي تشغيل الفكر ، و يقرر أن تعليمات القرآن الروحية هي الحقيقة الخالدة ، إنهم يعارضون حقيقة راهنة و هي أن الإسلام منهج الحياة الكامل المنسجم و أنه كل لا يتجزأ وأنه يفوق جميع المناهج التي ابتكرها الغرب إلى هذا اليوم ، إن

رفض أي جزء من هذا المجموع يحطم المجموع (١) .  
الموقف الثالث : إذن هنا هو الموقف الثالث، وما هو الموقف العادل الذي يجب أن يتباهي العالم الإسلامي تجاه هذه الحضارة الغربية؟ إنه لا يمكن تحديد موقف العالم الإسلامي تجاه هذه الحضارة الغربية حتى نعرف طبيعة الأمة الإسلامية . ومركزها في هذا العالم ، ثم نعرف مواقفها من هذه الحياة التي تصوغ الحضارات ، وأنشئ كل المجتمعات و المدنيات .

### مركز الأمة الإسلامية

و رسالتها : إن الأمة الإسلامية هي صاحبة الرسالة الدينية الأخيرة ، وهذه الرسالة هي التي تسيطر — ويجب أن تسيطر — على جميع مواقفها ، و تصرفاتها ، مركزها مركز القيادة و التوجيه ، و الحسبة على العالم ، و القرآن يعلن بقوه و صراحته « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر ، و تؤمنون بالله » ، و يقول « و كذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس و يكون الرسول عليكم شهيداً » . ليكون الرسول شهيداً عليكم و تكونوا شهداء على الناس » فلا يجوز أن يكون مكان هذه الأمة في مؤخر الركب ، و في صف التلاميذ و الحاشية ، و أن تعيش على هامش الأمم و ترضى — من القيادة و التوجيه ، و الأمر و النهي ، و المذاق و الإبداع — بالتقليد

و التطبيق ، و المضوع و الاطاعة . فلا يكون موقفها الصحيح إلا موقف الحر الــكريم ، القوى الإرادة ، المستقل التفكير ، الذي يأخذ – إذا اضطر و احتاج – من حوله بارادة و اختيار ما يطابقه و يلائمـه ، و ما لا يرزوه في شخصيته و تفوقـه و امتيازـه ، و ثقته بنفسـه و مركزـه ، و ينـبذ ما لا يلـائمـه و يضعف شخصـيـته و مركزـه و يفقدـه امتيازـه و يـدـبـجـهـ فيـ غـيرـهـ . و لذلك نـهـيـتـ هذهـ الأـمـةـ عنـ التـشـبـهـ بـقـومـ فيـ شـعـائـرـهـ وـ شـارـاتـهـ (١)

و هي أمة ذات هدف معين في الحياة ، و رسالة كاملة في العالم ، و حضارتها و ثقافتها ، و كفاحـها و إنتاجـها ، و كلـ ما يتصلـ بهاـ منـ حركةـ و نشاطـ خاضـعـ لـعقـيـدـتهاـ وـ غـايـاتـهاـ وـ رسـالـتهاـ فلاـ قـيمـةـ عندـهاـ اـفـلـسـفـةـ تـقولـ «ـالـعـلـمـ لـلـعـلـمـ»ـ وـ «ـالـقـوـةـ لـلـقـوـةـ»ـ وـ «ـاـكـتـشـافـ لـلـاـكـتـشـافـ»ـ وـ كذلكـ لـيـسـ مـنـ مـهـمـتـهاـ بـسـطـ السـيـطـرـةـ عـلـىـ الـأـنـسـانـ أوـ عـلـىـ الـأـكـوـانـ ، وـ تـسـخـيرـ الطـاقـاتـ الـبـشـرـيـةـ ، أوـ الـقـوـىـ الطـبـعـيـةـ وـ الـفـاكـيـةـ لـإـثـيـاتـ قـوـتهاـ أوـ تـقـرـيرـ

---

١ - قال العـلـامـ الحـسـينـ بنـ مـحـمـدـ بنـ عـبـدـ اللهـ الطـبـيـ (ـمـ ٧٤٣ـھـ)ـ فـيـ كـتـابـهـ الكـاـشـفـ عـنـ حـقـاـقـ الـسـنـنـ الـحـمـدـيـةـ (ـشـرـحـ مشـكـاةـ الـمـاصـبـعـ)ـ فـيـ شـرـحـ حـدـيـثـ «ـمـنـ تـشـبـهـ بـقـومـ فـهـوـ مـنـهـ»ـ ، الـذـيـ أـخـرـجـهـ أـحـمـدـ وـ أـبـوـ دـاؤـدـ ، هـذـاـ عـامـ فـيـ الـخـلـقـ وـ الـخـلـقـ وـ الشـعـارـ ، وـ لـمـاـ كـانـ الشـعـارـ أـظـهـرـ فـيـ التـشـبـهـ ذـكـرـ فـيـ هـذـاـ الـبـابـ ، قـالـ الـعـلـامـ نـورـ الدـينـ عـلـىـ بـنـ سـلـطـانـ مـحـمـدـ الـهـرـوـيـ الـمـعـرـوـفـ بـمـلاـ عـلـىـ الـقـارـىـ (ـمـ ١٠١٤ـھـ)ـ فـيـ الـمـرـقاـةـ ، قـلـتـ بـلـ الشـعـارـ هـوـ الـمـرـادـ بـالتـشـبـهـ لـاـغـيـرـ ، فـاـنـ الـخـلـقـ الـصـورـيـ لـاـ يـتـصـورـ فـيـ التـشـبـهـ ، وـ الـخـلـقـ الـمـاعـنـوـيـ لـاـ يـقـالـ فـيـهـ التـشـبـهـ بـلـ هـوـ الـخـلـقـ (ـصـ ٤٣١ـ جـ ٤ـ)

فتوجهها المادية و العلمية ، فإن ذلك عندها ضرب من العبث ، و نوع من الأنانية المتصحمة ، و القرآن يتلو عليها و يضبط اتجاهاتها و طموحها بقوله « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوأً في الأرض و لافساداً ، و العاقبة للتقين (١) »

المؤمن القوى العليم

الصالح المصلح : إنما يسمح لها الإسلام بالكافح في سبيل الحياة و الطبيعة و العلم — و قد يبحث عليه — لصالح البشرية و للغايات الكريمة إلى حد الضرورة ، و قد ضرب الله لها مثلاً في القرآن « بالأنسان القوى العليم الصالح المصلح الذي يسخر القوى الكونية و المادية ، و يملك أعظم مقدار من الأسباب و الوسائل و يوسع فتوحه و مغامراته و هو في كل ذلك ، و في أوج قوته و سلطنته و سيادته ، و تسخيره للقوى و الأسباب مؤمن بربه ، خاضع له ، مؤمن بالآخرة ، ساع لها مقر بضعفه ، رحيم بالإنسانية و بالأمم الضعيفة ، حام للحق ، يستخدم كل قوته و جهوده و مواهبه ، و جميع وسائله و ذخائره لخدمة الإنسانية ، و تكوين المجتمع الصالح ، و إعلام كلية الله ، و إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، و من عبادة الناس والمادة إلى عبادة الله ، سيرة مثالها سليمان بن داود في عصره ، و مثلها ذوالقرنيين في عصره ، و مثلها الخلفاء الراشدون و الأئمة المهديون

في عصورهم (١) .

الحياة كمرحلة عابرة

و وسيلة للآخرة : أما موقفها من هذه الحياة ، فهو موقف من لا يراها الغاية الأسمى والمثل الأعلى ، و سدرة المتنى في السعادة و التقدم . إنما ينظر إليها كمرحلة « عابرة » ، لا بد من اجتيازها ، و كوسيلة لا وصول إلى الفوز ~~الأكابر~~ ، والحياة الدائمة ، و العيشة الراضية ، إن القرآن يقرر – بكل وضوح و قوة – قصر هذه الحياة الدنيا ، و تفاهتها و تضاؤلها في جنب الآخرة ، فيقول مثلاً : « فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ » (٢) ، و يقول « ما هذه الحياة الدنيا إلا هو ولعب وإن الدار الآخرة هي الحيوان لو كانوا يعلمون » (٣) ، و يقول « إِعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَعْبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ ، وَ تَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَ الْأَوْلَادِ ، كَمِّيلٌ غَيْثٌ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَبَاتِهِ ، ثُمَّ يَهْبِطُ فِتْرَاهُ مَصْفَرًا ، ثُمَّ يَكُونُ حطَّاماً ، وَ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَ مَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَ رَضْوَانٌ ، وَ مَا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ لِلْغَرُورِ » (٤) .

و يقرر كذلك – في وضوح و قوة – أنها قنطرة إلى الآخرة ، و فرصة للعمل ، فيقول : « إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً

١ - تفسير سورة الكهف للمؤلف « المسلمين » ، المجلد السادس عدد ٤

٢ - العنكبون ٦٤ .

٣ - براءة ٣٨ .

٤ - الحديد ٢٠ .

لها لنيلوهم أئمهم أحسن عملا (١) » و يقول « الذي خلق الموت  
و الحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ، و هو العزيز الغفور (٢) »  
و يقرر أن الآخرة خير و أبقى فيقول « و ما الحياة الدنيا إلا  
لعبة و هر و للدار الآخرة خير للذين يتقون أفالا تعقلون (٣) »  
و يقول « و ما أُولئك من شئ فناء الحياة الدنيا و زينتها و ما  
عند الله خير و أبقى أفالا تعقلون (٤) » و يذم و يشفع على من  
يؤثر الدنيا — هذه الفانية العارضة الساقية الناقصة — على الآخرة  
— الباقيه الخالدة ، الواسعة الصافية من الأكدر ، الخالية من  
الأخطار — فيقول « إن الذين لا يرجون لقامتنا و رضوا بالحياة  
الدنيا و اطمأنوا بها ، و الذين هم عن آياتنا غافلون ، أولئك  
ما واهم النار بما كانوا يكسبون (٥) » و يقول « من كان يريد  
الحياة الدنيا و زينتها نوف إليهم أعمالهم فيها و هم فيها لا يحسنون ،  
أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار ، و حبط ما صنعوا  
فيها و باطل ما كانوا يعملون (٦) » و يقول « و ويل للكافرين  
الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، و يصدون عن سبيل الله  
و يغونها عوجا ، أولئك في ضلال بعيد (٧) » و يقول  
« يعلوون ظاهراً من الحياة الدنيا ، و هم عن الآخرة هم غافلون (٨) »

- |             |                |
|-------------|----------------|
| ١ - الملك ٢ | ٢ - الكهف ٧    |
| ٣ - القصص ٦ | ٤ - الأنعام ٣٢ |
| ٥ - هود ٦   | ٦ - يونس ٧ - ٨ |
| ٧ - الروم ٨ | ٨ - إبراهيم ٢  |

و يقول : « فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تُولِي عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، ذَلِكَ مِنْ لِغَمْمَةٍ مِنَ الْعِلْمِ ، إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى (١) » و يقول « إِنَّ هُولَاءِ يَحْبُّونَ الْعَاجِلَةَ ، وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثُقِيلاً (٢) » و يقول « فَإِنَّمَا مِنْ طَغْيَ وَآثْرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هُوَ الْمَأْوَى (٣) » .  
و يمدح من يجمع بين الدنيا والآخرة مع إيشار جانب الآخرة على جانب الدنيا ، و معرفة قيمتها و فضلها و الحرص عليها ، فيقول « فَهُنَّ النَّاسُ مَنْ يَقُولُ رَبُّنَا آتَانَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ، وَمَنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبُّنَا آتَانَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَنَا عَذَابَ النَّارِ (٤) » و يقول على لسان نبي الله موسى « وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدُنَا إِلَيْكَ (٥) » و يمدح خليله إبراهيم عليه الصلاة و السلام فيقول « وَآتَيْنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ (٦) » .

و خير ما يمثل موقف المؤمن من هذه الحياة ، و يحدد بدقة ومقدرة ليست فوقها دقة و مقدرة هو الجملة الحكيمية المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في إحدى خطبه في أيام الجمعة ، « إِنَّ الدُّنْيَا خَلَقَتْ لَكُمْ وَإِنَّكُمْ خَلَقْتُمُ الْآخِرَةَ » فالمسلم يجمع

٢ - الإنسان ٢٧

١ - النجم ٢٩ - ٣٠

٤ - البقرة ٢٠١ - ٢٠٠

٣ - السازعات ٣٧ - ٣٨ - ٣٩

٦ - النحل ١٢٢

٥ - الأعراف ١٥٦

بين الانتفاع بمرافق الحياة وأسباب الدنيا واستخدامها كشيء خلق لأجله و سخر له ، و بين السعي للآخرة والكناح لها كغاية خلق لأجلها ، فهو ينظر إلى الدنيا و قواتها و وسائلها كمادية و مركب لا كراكب و متصرف ، و كملوك و رقيق لا كملك و سيد ، و وسيلة لا كغاية ، و ينظر إلى الآخرة كغاية ينتهي إليها و وطن يلحد إليه فيجمع عليه همه و يرهق له قواه و يبحث إليها مطبيه ، و ذلك مثل النبوة الذي مثله الرسول صلى الله عليه وسلم إذ قال « ما لي و لدنيا و ما أنا و الدنيا إني أنا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح و تركها (١) » .

و قد تجلت هذه النفسية القرآنية أو النظرة القرآنية إلى الحياة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم و تعاليمه و سلوكه ، و كلامه و عواطفه و أماناته و دعائه و سره و علنه ، و تجلت كذلك في حياة الصحابة الذين تربوا و تكونت سيرتهم و عقلية لهم في حضانته و تحت إشرافه و من كان على نهجهم و على غرارهم من التابعين و المؤمنين من هذه الأمة ، بحيث قد صار ذلك طابعاً لحياتهم ، و مرجحاً لا ينفك عنهم ، و أصبح من الحقائق التاريخية التي لا يماري فيها .

و هنا تعارض الأديان السماوية ، و تعاليم النبوة أو مدرسة النبوة – إن صح التعبير – مع الفلسفات المادية ، و

١ - رواه أحمد و الترمذى

التفكير المادى الذى يلح على أن هذه الحياة الدنيا هي كل شئ ، و هي المنشئ ، و يبالغ في تمجيدها و تقديسها و الاحتفاء بها ، والحرص على ترفيهها و تحسينها و تزيينها .

### حضارة ثائرة على القيم

الدينية و الروحية : وقد كان من المصادفات الألية المحزنة ، والماأس الفاجعة للبشرية أن الحضارة الغربية قد ولدت و ترعرعت في عصر قد ثار على الدين و أنسسه من الإيمان بالغيب و غير ذلك ، و في أمة قد ثارت على الدين تزعموا الدين و استغلوه لشهواتهم و أنانياتهم ، و اشتد غضبها عليهم لسوء سيرتهم و همجيتهم و وقوفهم في سبيل التقدم و حرية العقل والعلم ، فترافق نشوء الحضارة و الصناعة و الاتجاه المادى العنيف ، الاتجاه إلى تنظيم الحياة على أساس مادية خالصة ، وقطع صلة المجتمع والبشرية عن فاطرها و مصرف هذا الكون ، و كل ذلك اقتضته سلسلة الأسباب و طبائع الأشياء ، و وضع أوربا الخاص ، فشببت هذه الحضارة و اختمرت و هي المسسيطرة على القوى و الأسباب ، قد بلغت الغاية في التقدم و الصناعة و علوم الطبيعة حتى استطاعت أخيراً أن تعدم المساحات و الأبعاد ، و تجاوز الكرة الهوائية ، إلى غير ذلك من الفتوح في دائرة العلوم الطبيعية و الفلكية (١) «

١ - منقول من تفسير سورة الكهف للمؤلف المنصور في « المسلمين » ، المجلد السادس

( ١٣٧٧ھ ) عدد ١ - ٢ - ٣ - ٤

سيطرة «المادية» على قادة التجديد في الشرق الإسلامي: وقد انتقلت هذه النفسية المادية إلى قادة حركات التجديد و بالأصح التغريب في الشرق الإسلامي و توافقوا — من عهد كمال إلى عهد جمال — على الافتتان بالتقدم المادي و اخذوا القوة و الرفاهية إلهًا يقدس و يعبد و يكفر بغيره ، و يضحى على أنصاره بكل القيم الخلقية و الروحية، و ما ليست له قيمة مادية ، و حسب القارئ أن يقرأ خطب هولاء الزعماء القوميين و القادة السياسيين ، و ما يكتبهونه بين آونة و أخرى ، و ما يدلون به من تصريحات ، و ما يتخذونه من إجراءات رسمية و خطوات عملية و ما يعاملون به الأحزاب التي تفك غير هذا التفكير ، و تسير غير هذه السيرة ، و تنتقد هذه الاتجاهات ، و حسبه أن يقرأ مشاريع الحكومة وخطط المستهدفة و مجالات النشاط و الحركة و المساعدة في الدوائر الرسمية ، يراها مقتصرة على ترفيه البلاد و تقويتها مادياً ، و رفع مستوى الحياة ، و مجازاة الشعوب التي لا تعرف غير المادة و المحسوسات حقيقة ، و لا تعرف غير القوة إلهًا و لا تعرف غير التقدم المادي و الرفاهية الدنيوية هدفاً و غرضاً ، و لا تعرف غير مجموعة الأفراد الذين تربط بينهم — رابطة قومية أو معاهدة سياسية — مجموعة بشرية ، تستحق الاحترام و الاهتمام ، إن هذه هي النفسية التي جرت على العالم الشفاعة و البلاء في كل زمان ،

و هي العقلية الضيقة السقيمة التي حاربتها الأديان ، و جاء يمحوها الاسلام ، و أن احتضان قادة بلد اسلامي لهذه الفكرة والعقيدة المادية الضيقة نكسة عظيمة في التفكير لاتدل إلا على ضعف الایمان و سوء التربية ، و سقوط الهمة ، و قصر النظر ، و شقاً هذه البلاد أولاً ، و شقاً العالم الانساني ثانياً .

إن الاحتفاظ بالشخصية الامامية ومركز هذه الأمة في العالم ، و معرفة رسالتها و الإيمان بقيمتها ، و التأكيد على قيمة الآخرة و ما بعد هذه الحياة — من سعادة و شقاً و جنة و نار — و التأكيد على الجانب الخلقي و الروحي من الحياة ، هو الخط الفاصل الذي يشكل الحد الفاصل الرسمي ( Line of Demarcation ) بين الحضارتين ، حضارة يواافق عليها الاسلام ، و يتتحمل مسؤوليتها ، و يباركها ، و تتجلى فيها الشخصية والأصالة والابداع ، و حضارة يتبرأ منها الاسلام ، و يخسر فيها المسلمون ، و تتجلى فيها العبودية و الرضوخ والاستسلام ، و العبادة التي لا تعرف إلا تقليد البيغواوات ، و محاكاة القرود .

محنة ذكاء و قوة إرادة : إن التصميم الحضاري محنة ذكاء ، و عصامية و عبقرية ، و قوة إرادة ، و فقه دين ، ليست مجرد عملية نقل و تطبيق ، و تعديل و تحسين ، إن الاسلام قد حد حدود الحلال والحرام ، و حرم تخطي هذه الحدود ، و أفسح المجال بينها للتمتع السليم النزيه ، في غير إسراف و إحجاف ، و مس بحقوق

الآخرين ومحظوظهم ، ومن غير تعرض لخطر الوقوع في الإثم و الفحشاء و التبذير ، والحياة التي لا تليق بالذكور الرجال ، والكرام الأقواء ، و هذه هي الروح التي تسيطر على أحكام اللباس و الطعام و العشرة و الاجتماع و المتعة و اللذة ، و حتى على مراعاةصالح ، والتتجنب من المضار والمفاسد ، و إعداد الممكن المستطاع من وسائل القوة و الدفاع ، و اقتباس الصالح النافع من العلوم و الحكمة ، بشرط أن لا يكون ذلك على حساب مقومات الشخصية و الكرامة القومية – الإسلامية – و بشرط أن لا ينشئ ذلك في الأمة شعوراً بالتفص ، و قصوراً في الثقة ، و روح اندفاع سريع متور إلى تقليد الآخرين ، و التشبع برواجهم ، و إجلال حياتهم و تقديرها .

نوعة حرير وصلابة حديد : إنها أساس حضارة تملك نوعة الحرير وصلابة الحديد ، نوعة الحرير في مسيرة المقتضيات و الحاجات و الحقائق ، غير مفترضة و لا مختلفة ، و غير متخيلة ولامبالغاً فيها ، و صلابة الحديد ، و ثبات الجبال على حدود العقيدة و الأخلاق ، إنها مفتوحة العقل و الضمير ، منشرحـة الصدر ، متهيأة لاقتباس العلوم النافعة التي نشأت ، و تكونت في جانب بعيد في هذا العالم ، واقتباس النظم والأساليب التي لا تمـس جوهر الدين و لا تغير وضع الأخلاق .

الإِفادة من الغرب و محالها : وأ Hollow هذا الفصل الذي يحدد موقف

العالم الاسلامي من حضارة الغرب و ثقافته بقطعة جميلة من كتاب «الطريق إلى مكة» للاستاذ محمد أسد ، فقد بدا فيها الازان و الحداقة الفكرية ، و هي تحديد — بلباقة فائقة و مقدرة كبيرة — الخط العادل المزن الذى يحب أن يسير عليه العالم الاسلامي في الـإفادة من الغرب ، و تبني الوسائل الحديثة ، يقول محمد أسد :

«إن عالم الاسلام والغرب لم يكونا يوماً أقرباً أحدهما من الآخر ، كما هما اليوم ، وهذا القرب هو صراع ظاهر و خفي ، ذلك أن أرواح الكثيرين من المسلمين و المسلمات تتغاضن رويداً رويداً تحت تأثير العوامل الثقافية الغربية ، لأنهم يتذرون أنفسهم ، يتبعدون عن اعتقادهم السابق بأن تحسين مقاييس المعيشة يجب أن لا يكون سوى واسطة لتحسين أحاسيس الانسان الروحية ، لأنهم يسقطون في وثنية «التقدم» نفسها التي تردى فيها العالم الغربي بعد أن صغروا الدين إلى مجرد صلصلة رخيمة في مكان ما من مؤخرة الأحداث ، ولذلك تراهم يصغرون مقاماً و لا يكبرون ، ذلك أن كل تقليد ثقافي ، بخلافخلق و الإيداع لابد أن يحقر الأمة و يقلل من شأنها .

أنا لا أعني أن المسلمين لا يستطيعون أن يفيدوا كثيراً من الغرب ، و بخاصة في مجال العلوم و الفنون الصناعية ، ذلك أن اكتساب الأفكار و الأساليب العلمية ليس في الحق «تقليداً» ، وبالتأكيد ليس في حالة قوم يأمرهم دينهم بطلب العلم في حيثها يمكن أن يوجد ،

إن العلم لا غربي ولا شرقي ، ذلك أن الاكتشافات العلمية ليست إلا حلقات في سلسلة لانهاية لها من الجهد العقلي الذي يضم الجنس البشري بكامله ، إن كل عالم يبني على الأسس التي يقدمها له أسلافه ، سواء كانوا من بني أمهته أو من أبناء أممته غيرها ، و عملية البناء والاصلاح و التحسين هذه تستمر و تستمر ، من إنسان إلى إنسان و من عصر إلى عصر ، و من مدينة إلى مدينة ، بحيث أن ما يتحققه عصر معين أو مدينة معينة من أعمال علمية جليلة لا يمكن مطلقاً أن يقال إنها « تخص » و « تعود إلى » ذلك العصر أو إلى تلك المدينة ، فقد يحدث في مختلف الأزمنة و العصور أن تسهم أمم ما ، أمضى عزيمة و أشد همة من غيرها ، بنصيب أكبر في صندوق المعرفة ، و لكن الجميع مع الزمن يشترون ، و بصورة شرعية صحيحة في هذه العملية ، لقد جاء حين كانت مدينة المسلمين أقوى وأمضى من مدينة أوروبا فنتقلت إلى أوروبا كثيراً من الاختراعات الصناعية و الفنية ذات الطبيعة الثورية ، وأكثر من هذا : مبادئ « تلك الطريقة العلمية » نفسها التي يرتكز إليها العلم الحديث . و المدينة الحديثة ، و مع ذلك فان اكتشافات جابر بن حيان الكيميائية لم تجعل من الكيمياء علمآ « عربياً » كذلك لا يمكن أن يقال إن الجبر و علم المثلثات هما علمان « إسلاميان » مع أن الأول منها بسطه الخوارزمي ، و الثاني البيتاني ، وكلا هما كانا مسلمين ، تماماً كما لا يستطيع أحد أن يتكلم عن نظرية الجاذبية « الانكليزية » مع

أن صاحبها كان اذكى يزيا ، كل هذه الاعمال العلمية العظيمة هي ملك مشترك بين الجنس البشري كله ، و إذن فان المسلمين إذا تبنوا كما هو من واجبهم أن يفعلوا ، الطريق والوسائل الحديثة في العلوم والفنون الصناعية ، فانهم بذلك لا يفعلون أكثر من اتباع غريزة التطور والارتفاع التي تجعل الناس يفيدون من خبرات غيرهم ، ولكنهم إذا تبنوا – و هم في غير حاجة إلى أن يفعلوا ذلك – أشكال الحياة الغربية و الآداب و العادات و المفاهيم الاجتماعية الغربية فانهم لن يفيدوا من ذلك شيئاً ، ذلك أن ما يستطيع الغرب أن يقدمه لهم في هذا المضمار لن يكون أفضل وأسمى مما قدمته لهم ثقافتهم نفسها ، و ما يدخلهم عليه دينهم نفسه .

ولو أن المسلمين احتفظوا برباطة جأشهم وارتضوا الرقي وسيلة لا غاية في ذاتها إذن لما استطاعوا أن يحتفظوا بحريتهم الباطنية خسب ، بل ربما استطاعوا أيضاً أن يعطوا إنسان الغرب سرطاً لحياة الصنائع (١)

### الفَرَاغُ الْأَكْبَرُ

والعمرى المطلوب : إن الفراغ الهائل الأكبر في العالم الإسلامي هو وجود ذلك العمرى العصامى الذى يواجهه الحضارة الغربية بشجاعة و إيمان و ذكاء ، و يشق له طريقاً خاصاً بين مناهجهما و مذاهبتها ، و بين فضائلها و رذائلها ، طريقاً يترفع فيها عن التقليد و المحاكاة و عن التطرف و المغالاة ، غير خاضع فيها للأشكال

١ - الطريق إلى ذلك الاستاذ محمد أسد (ليوبولد سابقاً) ص ٢٧٤ - ٢٧٦

و المظاهر ، و المفاهيم الباطحة ، متمسكا بالحقائق وأسباب القوة ،  
و باللباب دون الفشور .

البعقرى العصامى الذى يشق له ولبلاده و أمتة طريقاً بتكرا  
يجمع فيها بين الإيمان الذى اختص به الانبياء والرسل والدين الذى  
أكرمه الله و أمتته به عن طريق محمد صلى الله عليه وسلم ، و بين  
العلم الذى ليس ملك أمة ولا بلد ولا عصر ، يأخذ من الدين  
الد汪ع الخيرة التى هى أعظم قوة وأغنى ثروة في خدمة الإنسانية  
و بناء صرح المدينة ، و الغايات الرشيدة الصالحة التى لا يوحى بها إلا  
الدين السماوى و التربية الدينية السليمة ، و يأخذ من الحضارة  
الغربية الآلات و الوسائل القوية الكثيرة التى انتجتها و توصلت  
إليها في سيرها على الطويل و في جهادها المتواصل الشاق ، و  
لم يتفع بها الغرب لا فلادسه في هذا الإيمان و فقره في هذه الدوافع  
الخيرية و في هذه الغايات الصالحة ، بل أصبحت تستخدم في شقاء  
الإنسانية و تقويض أركان المدينة أو لغايات تافهة لا قيمة لها .

البعقرى العصامى الذى يعامل الحضارة الغربية — بعلوها و  
نظرياتها و اكتشافاتها و طاقاتها — كمودخام ، يصوغ منها حضارة  
قوية عصرية مؤسسة على الإيمان والأخلاق والتقوى والرحمة و  
العدل في جانب ، وعلى القوة والانتاج و الرفاهة و حب الابتكار  
في جانب آخر ، و لا يعامل الحضارة الغربية كشيء قد تم تكوينه  
و تركيبه و ختم عليه فلا يوحد إلا ببرهاته و لا يقبل إلا على علاته ،

إنما يأخذها كأجزاء ، يختار منها ما يشاء ، ويركب منها جهازاً يخضع لغاياته وعقيدته ومبادئه ونظام خلقه و ما يكلفه به دينه من منهج خاص للحياة ، ونظرة خاصة إلى الدنيا ، وسلوك خاص . لبني النوع ، وسعى خاص للأخرة وجهاد دائم « حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله له » جهازاً مؤسساً على الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأنه المثل الكامل ، والامام الدائم والقائد المطاع ونموذج المتبوع والسيد المحبوب ، والخاضوع لشريعته كدستور للحياة ، وأساس للتقنين ، و الدين الوحيد الذي تناول به سعادة الدنيا والآخرة ولا يقبل الله سواه .

العقلاني العصامي الذي يأخذ من علوم الغرب ما تفتقر إليه أمتة وبلاده و ما تتفق عملياً و ما ليس عليه طابع غرب أو شرق ، إنما هي علوم تجريبية تطبيقية ، وينقص عن كل ما يأخذ من الغرب غباراً اصق به في القرون المظلمة وفي عصر الثورة على الدين ، وفي حالة توتر أعصاب وقلق نفوس . يأخذ العلوم المفيدة مجردة من روح الإلحاد والعداء للدين ومن النتائج الخاطئة ، ويطعمها بالإيمان بفاطر الكون و مدبره ، ويستنتج منها نتائج أعظم وأوسع وأعمق وأكثر سعادة للإنسانية مما توصل إليه أساتذتها الغربيون .

العقلاني العصامي الذي لا ينظر إلى الغرب كإمام وزعيم خالد ، وإلى نفسه كمقلد وتميذ دائم ، إنما ينظر إلى الغرب كزهيل سبق ، وكثرين تفوق في بعض العلوم المادية والمعاشية فيأخذ منه

ما فاته من التجارب ويفيض عليه بدوره ماسعد به من تراث النبوة، ويعتقد أنه إن كان في حاجة إلى أن يتعلم من الغرب كثيراً، فالغرب في حاجة إلى أن يتعلم منه كثيراً، وربما كان ما يتعلمه الغرب منه أفضل مما يتعلمه هو من الغرب، ويحاول أن ينبع — بذ كائه و جمده بين حسناوات الغرب و الشرق و قوى الروحانية و المذاقية — منهجاً جديداً يحدّر بالغرب تقديره و تقليده ، ويضيف إلى المدارس الفكرية و المناهج الحضارية مدرسة جديدة تستحق كل عناء و دراسة و تقليد و اتباع .

هذا هو العبرى العصامى الذى لايزال مفقوداً في صفوف القادة و الزعماء في العالم الاسلامى على كثريتهم و تنوعهم ، وهذا هو العملاق حقاً الذى يedo في جانبه القادة المقادون المطبقون صغاراً متواضعين كالأقزام .

و إنها أعظم تجربة و أبعدها أثراً ليس في محيط شعب أو بلد ، و ليس في محيط العالم الاسلامى فحسب بل في محيط العالم وفي محيط الإنسانية كلها ، و إن التاريخ شاخص يبصره إلى من يقوم بها في الأقطار الاسلامية و العربية ، مسك قلبه ليسيطر له سطور الثناء و الإجلال و يقلده الزعامة الحقيقية ، و مركز التجديد في العالم الاسلامي ، و العبرية و العصامية في التاريخ الانسانى ۲

## الفهرست

### الصفحة

### الموضوع

٥	كلمة المؤلف
٩	العالم الاسلامي أمام مشكلة الحضارة الغربية
١٠	المزيج الغريب
١١	<b>الموقف الاول السلبي</b>
١١	حكم هذا الموقف طبعاً و شرعاً و تابعه
١٣	مصير الأقطار التي تعيش في عزلة عن العالم
١٦	التقاليد و العادات لا تستطيع أن تقاوم الحضارة الجديدة
١٧	لا بد من التخطيط و إصلاح الأوضاع
١٨	سبب حدوث الثورات في العالم الاسلامي و علاجه
١٩	<b>الموقف الثاني موقف الاستسلام و التقليد</b>
٢٢	حركة ، التغريب ، في تركيا و أسبابها
٢٤	ضياء كوك ألب و فلسفته
٢٦	دور تركيا التقليدي
٢٩	شخصية أتاترک و مأثرته التقليدية
٣٢	تأثير أتاترک في العالم الاسلامي
٣٣	الصراع بين الشرق و الغرب في الهند

الصفحة

الموضوع

٣٤	القيادة الدينية و المدرسة القديمـة
٣٦	حركة ندوة العلماء
٣٨	قيادة السيد أحمد خان و مدرسته الفـكريـة
٤٤	جوانب الضعف في فـكرة السيد احمد خان
٤٨	محصول هذه الحركة و إنتاجـها
٤٩	أـكبر الـأـله آبادـي ، الشاعـر الشـاعـر
٥١	الـحـركة الـوطـنـية و مقاطـعة البـضـائـع الـاجـنبـية
٥٤	محمد إقبال و نـقـده للـحضـارـة الغـربـية
٦٢	الـحضـارـة الغـربـية و الأـقطـار الـاسـلامـية
٦٢	نقـده لـدـعـة التـجـديـد فـي الشـرق
٦٣	إـيمـانـه بـفضلـ الـحضـارـة الـاسـلامـية و حـيـويـتها
٦٤	الـمـعـمل الـاسـلامـى الجـديـد
٦٦	الـعـمـلـيـة فـي الـامـتحـان
٦٦	أـهمـيـة الدـور الـذـي تمـثـلـه مصرـ فـي العـالـم الـاسـلامـي
٦٨	الـحـاجـة إـلـى قـناـة جـديـدة
٧٠	مـوـقـفـ مصرـ التـقـليـدى الضـعـيف
٧٠	الـسـيـد جـمالـ الدـينـ الـأـفـغـانـى و انـقـطـاعـه إـلـى السـيـاسـيـة
٧٣	فضـلـ حـركةـ السـيـد جـمالـ الدـينـ و مـدرـستـه

الصفحة

الموضوع

٧٤	حركة « الإخوان » و الخسارة بفقدانها
٧٥	المتخرجون في أوربا ملائعاً الفكر الغربي في العالم العربي
٧٨	صدى أفكار المستشرقين في مصر
٧٩	اتجاه حركة التأليف و الترجمة إلى الأدب و الاجتماع
٨٠	صورة من الحياة الغربية
٨٢	دعوة طه حسين مصر إلى اعتبار نفسها جزءاً من الغرب
٨٤	مستوى فكري نازل
٨٥	الطبعة الجديدة العربية للحركة الكالية التركية
٨٧	محاولة تطوير المجتمع المصري و العربي كلياً
٩٠	سوؤ تأثير الثورة المصرية و قيادتها في العالم العربي
٩٢	طبيعة ردة فكرية
٩٢	الأقطار الإسلامية المتحررة حديثاً في طريق « التغريب »
٩٣	عملية هدم و إزالة أنقاض
٩٤	رجعية التقديرين
٩٥	تقليد دعوة التجديد
٩٥	صراع بين الحكومات و الشعوب
٩٦	إهمال طاقات و كنوز مخبوءة
٩٧	خضوع قادة البلاد الإسلامية للحضارة الغربية و قيمها

الصفحة	الموضوع
١٠٠	الموقف الثالث
١٠٠	مركز الأمة الإسلامية و رسالتها
١٠٢	المؤمن القوي العليم الصالح المصالح
١٠٣	الحياة كمرحلة عابرة و وسيلة الآخرة
١٠٧	حضارة ثائرة على القيم الدينية و الروحية
١٠٨	سيطرة ، المادة ، على قادة التجديد في الشرق الإسلامي
١٠٩	محنة ذكاء و قوة إرادة
١١٠	نعومة حرير و صلابة حديد
١١٠	الإفادة من الغرب و مجالها
١١٣	الفراغ الأكبر و العبقري المطلوب
١١٧	الفهرست

